خُلقٌ كخلقِهم

صدر عام ٢٠١٧ عن دار **الإسراء للنشر والتوزيع**
عمان - الأردن - وسط البلد عمارة(٤)
شارع الملك الحسين- فوق حلويات حبيبة
تلفاكس: ٧١١ ٤٦٢٠ ٦ ٠٠٩٦٢ موبايل: ١٢٨ ٥٣٨١ ٧٩ ٠٠٩٦٢
Email: mohumed81@yahoo.com

الطبعة الأولى ، ٢٠١٧

ر.د.م.ك. : ٩٧٨٩٩٥٧٥٠٨٣٤٠

إن الكاتب سيكون سعيد بمناقشة الكتاب و التواصل مع القارىء
لاستقبال النصائح و النقاش. dr.ahmed29@live.com
Ahmed AlShammari

صف الكتاب وتصميم الغلاف: زهـراء صلوحة
00962 79 026 1009
ZAHRAA.SALLOUHA@GMAIL.COM

خُلقٌ كخلقِهم

د. أحمد علاء الشمري

الطبعة الأولى
٢٠١٨

دار الإسراء للنشر والتوزيع

الإهداء

ولأن لها أهمية عظمى ..

ووجودها يبقى ويطغى ..

هي الحضارة ،

تُبنى بالإنسان ، وتُعمر بالأفكار ، وتُدوم بالأخلاق ..

أشرقت بخير الورى ،

وأضاءت في من رباهم بمدرسته ورضي أخلاقهم وقَبِل ..

ثم بتقصير منا ، أفل نجمها ..

وللنجم عودة ..

نهدي الصفحات ،

لحضارتنا الإسلامية الخالدة ..

ولأمتنا الوّلادة .. «أمةً و وطن «

ولشعاع حضارتي ومنبع الخلق الذي استقي منه ..أمي و أبي .

المقدمة

في الوقت الذي نواصل به التشدّق بالقيم الأخلاقية التي نتفوق بها على العالم بأسره، مكررين دومًا الحقيقة التي تقول بأن الغرب تقدّم علينا في الجانب العلميّ و أن الشرق سبقنا بمراحل في المجال الإنتاجيّ، لكنّنا ما نزال على رأس الهرم في القيمة الأخلاقية، بعيدين كلّ البعد عن التفكّك الأخلاقيّ والقيميّ التي تعاني منه هذه الشعوب والمجتمعات التي تتفكك بها الأسر، وتنحلّ بها الأخلاق، وتشيع فيها الرذيلة.

ولكنّنا دون وعي كافٍ منّا يتواصل النزيف الأخلاقي في مجتمعاتنا، وتواصل الأساليب التربوية الانحدار مما سيوشك بنا إلى أن نتساوى مع تلك الأمم - التي تكاد تسبقنا في كل شيء – في الأخلاق والمبادئ التربويّة .

وحينها لن ينجو الدين من هذا السباق؛ فديننا جاء متمما لمكارم الأخلاق، وليس منزوعًا منها مطلقًا، ففي اللحظة التي تتساوى أخلاقنا انحدارًا مع الأمم التي تفككت أخلاقها؛ فنحن

في تلك اللحظة من الوقت نكون قد فقدنا القيمة الدّاخلية لواقع الدين الذي نعتنقه ونؤمن به؛ فأيّ شيء يبقى للأمة إن هي فقدت دينها وأخلاقها في ظل تراجعها الكبير في جانب الحضارة والتنمية والعلم؟

بتفكيك هذا السؤال والنظر به يتوضح لنا ماهية الخطر الذي نواجهه، وعلينا بشكل فعّال أن نتصدى له. ولعل من الشواهد الحقيقية لما نعانيه من أزمة انحدار الأخلاق ما نشاهده في كل دقيقة في شوارعنا المكتظة بالتصرفات الخارجة عن الخلق المقبول. ويبدأ التجاوز الأخلاقي في انحدار كبير في مستوى الصدق بين الناس، يليه التواضع والحلم مرورًا بكل خلق من الأخلاق الكريمة، ولا يكاد الرفق -حتى بغير الإنسان- ينجو من المشاهد التي نشاهدها، والانتهاكات التي تزداد يومًا بعد يوم. ولعل التجمهر غير المبرر خلف الذين يُعتبرون قدوة هذا الجيل مثال فاضح آخر، حيث أصبح الجيل يتجمهر حول كل الذين ودّعوا الخلق بتصرفاتهم وطرحهم وأخلاقهم، بل وكأنّ امتهان الخلق أصبح من أساسيات النجاح. وتسقط كل هذه التصرفات حول الدعوات التي تغزو العقول بالاعتقاد أن التطوّر الزمني والمجتمعي لم يقدم

تقدمًا وتطورًا في الجانب التربوي، مما يعزو إليه هذه الفجوة بين الأخلاق كقيمة وأفعال، وبين الواقع الذي يقال إنّه تقدّم، فأصبح لا يليق به لباس الخلق القديم !

وبذاك الزعم وغيره ، وبالشعارات التي تُردّد دومًا في وجه كل محاولة لتجديد أسلوب النمط التربوي، والتي تقوم بإغلاق السبل أمام كل محاولة لإعادة تسطير القيم التربوية في الكتب، وطرحها على شكل عملي وتنموي ليصبح خطوات قابلة للتنفيذ والتدريب تحت شعار " الأخلاق لا تكتسب ، إنما هي ضمنية مع الفطرة ". هذا الشعار وما على شاكلته من الحجج الواهية التي تخندق خلفها أهل الكسل، من الذين جبنوا أن يسألوا أنفسهم السؤال الأهم " كيف ربّاني أبي ؟!" و يتبعوه بالسؤال " ما هي الكيفية التي سوف أربي عليها أبنائي " ويضيع بين هذين السؤالين معنى مهم لسؤال آخر يقول " كيف أقوّم نفسي وأدرّبها على ممارسة الخلق الذي تربيت عليه ؟! "

جلّ هذه الأسئلة، وغيرها التي تتشابه معها في الغاية تبقى عائمة في محيط من الكتب التمنوية في كل شيء سوى في الأخلاق والتربية، ولعل هذا التقصير الذي نتشارك به جميعًا يعد سببًا مهما

من أسباب عدم القدرة على إيقاف سقوط القيم الأخلاقية اليومي، وغياب الخطط البسيطة التي يجب أن تصل إلى كل فرد في هذا المجتمع ليساهم هو بنفسه وبأسرته في إنقاذ ما نمتلكه من تميّز في ظلّ عالم من التميّزات الذي أضعنا بوصلة اللحاق به .

يتناول هذا الكتاب في طياته فكرة أساسية، وهي محاولة جادة لتفسيخ القصص العظيمة التي يتحاكى بها الخطباء والدعاة ومقدمو البرامج والمربّون الأفاضل من قصص الصحابة العظام، الذين كانوا طلابًا في أكمل وأشمل مدرسة التي شهد لها الله بالخلق العظيم « المدرسة المحمدية» -على صاحبها الصلاة والسلام ما طلعت شمس وما بان ليل- . فأصبح الطلاب بعد معلمهم مدارس في الخُلق وغيره، ولكننا - ولكسلنا وقلة وعينا - حوّلنا هذه القصص التي ما نقلت إلا لأخذ العبر والدروس من قصص تدريسية إلى قصص تقال لرفع الجانب المعنوي لدى أمة مسكورة، ولزيادة المتعة لأمة تبحث عن القصة الممتعة. فكان السعي في هذا الكتاب بفضل الله وبعد التوكل عليه في استثمار هذه المواقف والقصص من حياة بعض الصحابة الكرام وتحليلها لتجيب عن سؤال البحث التربوي، فحلّلنا هذه القصص إلى قيم تربوية أعدنا طرحها وصياغتها في محاور

ثلاثة مهمة وبدأنا بخيرها وهو المحور الديني، ثم أردفنا بالمحور المجتمعي، ولم نستثنِ من الطرح المحور الشخصي والأسري، لتكتمل صورة سريعة للخلق من جوانبه الثلاثة، ولنسقط هذه المحاور على العلاقات الاجتماعية اليومية ، لنتمكن من استيعاب قيمة هذا الخلق ولننزله من رف الكتاب إلى مشاهد العين التي ترى من حولها وتتفكر.

ولعلمنا بالإقبال الهائل من القارئ العربي على الجانب التنموي في الكتب، إيمانًا منه أن الكتاب لابد له من رسالة عملية تطبيقية، جاءت صفحات هذا الكتاب تلبي هذه الرغبة وتعتني بها، فقد أوردت أمثلة تطبيقية وتدريبية إلى كل قيمة من القيم الأخلاقية التي تم طرحها، وليكتمل الركن الثالث من أركان هذا الكتاب والذي يضم في صفحاته (الأسلوب القصصي، والطرح التربوي، والتركيبة التنموية) . وكل هذا في غطاء من المبادئ الدينية التي نؤمن أنها عصب الحياة في أمتنا .

إننا نكتب واليقين يملؤنا بأن الأمم التي تحاول بناء حضارة، لا يكفي لها أن تجمع علوم الدنيا أو تطور العالم، ولن يغني عنها عددها ومالها شيئًا إذا ما فقدت قيمة الإنسان الحقيقية، والتي

تتمثل بخلق الإنسان ومبادئه. ومن هذا اليقين نحاول في صفحات هذا الكتاب أن نطرح جانبًا بسيطًا من الأخلاق ليكون لبنة ومشاركة في عملية إعادة تسطير الأخلاق من جديد، وبشكل يحاكي التطور الحاصل من حولنا في أساليب الطرح وطرق النقاش، والشكل الجديد للكتب التي يقوم بقراءتها الجيل الجديد. وبالفعل بدأنا - قبل المضي في كتابة هذه الصفحات - بتصوير مقاطع تصويرية صغيرة ومباشرة وكانت تحت عنوان " صحابيّ في دقيقة " ونشرت على صفحتنا على شبكة التواصل الاجتماعي "الفيسبوك" بهاشتاغ #نصرة_الصحابة، ومن ثمّ أضفنا إلى طيف مواكبة العصر في الطرح طيفًا آخر، فشاركنا الجمهور بالتفكير وقراءة ما يحتاج من خلال عمليات العصف الذهني الممنهج، والقيام بالاستثمار اليومي لأفكار الجمهور ومن ثم مناقشتها في « بث مباشر » وكل ذلك على الصفحة نفسها على شبكة التواصل الاجتماعي " الفيسبوك". وما كانت هذه الخطوات إلا محاولات طفيفة للوصول إلى ما يرغبه الجمهور من تقرّب إلى التطور الذي يعيشه المجتمع، ليس في الطرح فقط، وإنما في اغتنام أفكار هذا الجمهور واستثمارها وإعادة صياغتها بشكل يقبل الطرح الأدبي .

إننا نقف أمام تحدّ كبير يتمثل في إعادة ترميم الحضارة الإسلامية لأمتنا، متبوعة بالحضارة الإنسانية لواقعنا العربي، وهذا لا يكون حقيقيًا دون الاهتمام بأساس الحضارة من القاعدة الأخلاقية للمجتمع والإنسان. فنسأل الله تعالى أن تكون صفحات هذا الكتاب إضافة إلى ما تقدّم من عمل العاملين في هذا المجال، وبابًا يفتحه الله بتوفيقه ورضاه للجميع لإكمال بناء الجدار الأخلاقي المتين ضدّ كل موجات التدمير الخلقي الممنهج الذي يتلقاه الإنسان في أمتنا سواء بشكل مباشر أم غير مباشر.

اللهمّ هذا العمل، فما كان فيه من خير وبركة فهو منك وبتوفيقك ولاشكّ، وما كان من تقصير فهو جهد البشر المقصر ومن الشيطان، فارزقنا اللهمّ استثمار هذا العمل في جوانبه التي طرح بها لتنمية هذه الأمة بشبابها وبمجتمعها، وجنبنا الرياء وما دونه في هذا العمل، فإننا نرتجي أن يكون عملنا خالصًا لوجهك الكريم

د.أحمد علاء الشمري

٢٦\٨\٢٠١٧

الدوحة - قطر

إنما جاءت الفكرة بتسطير هذا الكتاب وتحويل الجهد الذي بذل في إعداد حلقات تصويرية حول نفس الفكرة من الأستاذ الكريم محمد خمايسة . أسال المولى أن يرزقه أجر هذا العمل ، ويبارك بفريق الإعداد على جهدهم في مراجعة طباعة هذا الكتاب وتدقيقه ، سائلين المولى أن يمكننا من تطويره في المراحل القادمة فكرة وطباعة .

القيمةُ التربوية

لا يخفى أبداً على أهلِ الاطّلاعِ القيمةُ التربويةُ للأخلاقِ التي يتعامل بها الإنسان مع البشريةِ بشكلٍ خاص والعالمِ بشكلٍ عام ، حيث تأتي كل هذه الأخلاق والأفعال الصادرة من الشخص كردّةِ فعلٍ لمجموعةٍ من العوامل المتشابكة، كالمبادئِ التي تربىّ عليها الإنسان، والظروفِ التي كونت الخُلُقَ العامَّ لديه ، وبالطبع الخبراتِ التي يكتسبها في حياته، سواءً كانت من التعليم أو التدريب أو التطبيق ، بالإضافة إلى بقية العوامل الآنيّة لكلِّ فعلٍ ولكلِّ حدث . وتكونُ هذه المجموعة غيرُ المنفصلةِ من العوامل مكونًا رئيسيًا لكلِّ فعل يَصدر من الإنسان ، غيرَ أنَّ الاختلاف يكون بنسبة تأثير كلِّ عاملٍ من هذه العوامل في اللحظة الآنيّة للفعل وبالتالي تجدُ بعضَ التغيُّرات في ردّةِ الفعل ، ولكنَّها تكونُ غالبًا متزنةً بهيكليّةٍ عامة.

العمليَّةُ التربوية ، هي عمليَّةٌ شديدةُ الحساسيَّة، حيثُ تتشكلُ فيها أطيافٌ متعددة ، فتتأثر العمليَّةُ التربويَّةُ بالجانب المجتمعيِّ والجانب العلميِّ ، فكُلَّما تغيَّرت طبائعُ المجتمع، وأهدافُه ، ومعتقداتُهُ

و طرقُه ، تأثَّرت بذلك التربيةُ تأثرًا واضحًا ، كما وتتأثَّرُ ولا شكّ بالعلوم بمختلفِ أشكالها ، وتتغيرُ طرقُ التربيةِ طبقًا لتغيُّرِ هذه العلومِ وتطورها واختلافها .

إنَّ التربيةَ هي أداةٌ كبرى من أدواتِ صناعةِ التَّغيير، في أيِّ مجالٍ من المجالات ، وتحتَ أيِّ مسمّى أو اتجاه ، فكلُّ أسلوبٍ للتَّغيير يبدأ من التربية ، ويستخدمها كأداةٍ عظيمةٍ في هذا الاتجاه ، ويبقى المَثَلُ الأسمى هو الدِّينُ الإسلاميُّ الحنيف ، والذي جاء مرتكزًا على تربيةِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه الكرام على أحكام هذا الدِّين وسماحتِه، لينشئ من هذه التربية مدرسةً محمَّدِيَّةً تبقى إلى اليوم، لها كيانها ، تَستخدِم دستورَ الله تعالى في التَّربية ثم الحُكم، مُستَنِدةً إلى حديث النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وسُنَّتِه الصَّحيحة في مجال القول أو التَّطبيق والمنقولة إلينا بالتَّواتُر.

إذًا اهتمَّ الإسلامُ بالتَّربية ، واعتنى بشكلٍ مُشدَّدٍ بالأخلاق، وحمَل شعار الخُلُقِ منذ اللّحظةِ الأولى وأكَّد عليه « إنَّما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارم الأخلاق»[1]

---

١. صححه الألباني في الصحيحة .

ومِن خِلال هذه الأسطر ، نُنَاقِشُ بشكل توضيحيٍّ كيف باستطاعة الإنسان أن يُلبِسَ أخلاقَه غطاءَ العبادة ، فتَتَحوَّلُ تصرُّفاتُهُ إلى عباداتٍ يُثابُ عليها ، وتكونُ أفعاله مُحصَّنةً بالأمرِ الإلهيِّ الذي يرضاه الله جلَّ في علاه ، وحتى في تدريبه لنَفْسِه يبقى تحت ثوبِ التَّدريب ؛ لأداءِ العبادةِ على الشَّكلِ الأساس ، فدِينُنَا ينص بالصحيح على أنَّه دِينُ المعاملة، وإنَّما جاءت العباداتُ والشَّرائعُ في الدِّين لتُعَلِّمَ الإنسانَ وتَضبِطَ له أمورًا عديدة ، مِن أهمِّها : المُعاملاتُ التي تُصلِحُ حياة الأفراد .

استشعارُ رقابة الله.

على العبدِ أن يستشعر مُراقبةِ الله تعالى له ، فاللهُ قد أَوجَدَ المخلوقاتِ مِنَ العَدَم ، و وَضَعَ لها نواميسَ و سنناً، وراقَبَ صنيعَها، فهو لا يَغفَلُ ولا يَنسى ، مُطَّلِعٌ على حقائقِ الأمورِ وخوافيها ، فمتى استطاع الإنسان أن يمتلك هذه الحقيقة في قلبه ، مُتَيقِّنًا منها ومُستَشعِرًا إيّاها ، اختلف تطبيقه للأخلاق ، فصار منبع الخُلُقِ موصولًا بمراقبة الله ، والحياء من التَّقصيرِ أمامَ مُراقبَتِهِ جَلَّ في علاه ، بل والخوف من حسابه حين تخالف ما أمر وتأتي ما نهى عنه وزجر. باستحضار هذه النيّة دومًا في كُلِّ فعل ، يكون للصَّادق

أجرٌ مختلف في صدقه ، وبركة لا يدركها عقل بشر ، ويكون لصحاب الحياء من أجل مراقبة الله أجر في حيائه ، ولصانع البسمة أو الكريم أو الشجاع أجور مختلفة ، تقترب من أجر العبادة التي أمر الله بها أو قد تزيد عليها باستحضارهم لِنيَّة العمل تحت رقابة الله في كل هذه الأخلاق والمعاملات.

التخلُّقُ بصاحب السيرة ﷺ وصحبه

لَمْ تَدَعْ سيرةُ المربّي الأعظم ، محمد ﷺ شاردةً ولا واردةً من أمور العصر إلا وقد حرَصت على بيانها وتوضيح أسبابها وطرق تنفيذها فسار بها النبي ﷺبين النّاس كأنَّه قرآن يمشي على الأرض، يُعلِّمُ الحيارى، ويُفَقِّهُ النَّاس، ويُجيبُ على تساؤلات الخَلق أجمعين، فكان في سيرته الأولى هو الصَّادقُ الأمين ، وهو الشجاع في الحروب، والمبتسم في وجه كل مخلوق ، يرفقُ بالصَّغير والكبير ، والإنسان والحجر ، ويعتني بالأنثى والذكر ، ويضاحك الحزين ، ويلاعب الطِّفل الصَّغير ، ويكرم ضيفه، ويعفو عن المُسيء ، وغير ذلك من أخلاقه حتّى حاز على شهادةٍ من أعظم العظماء بقوله – تعالى-: « وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [١]

(١) سورة القلم ، آية رقم ٤

وعلى هذا النَّهج سار أتْباعُ هذه المدرسة العظيمة ، فتعلموا من مشكاة النُّبوة أخلاقهم، وتعاملوا أمام رسول الله ﷺ حتى مات وهو راضٍ تمام الرضى عن أخلاقهم وأفعالهم ، فصاروا هُم مدرسة من تلك المدرسة ، فأولئك هم الصحابةُ الكرام ، وأمهات المؤمنين عليهم رضوان الله ، ومَن سار خلفهم وعلى نهجهم من أهل السلف الصَّالح من ثقات العلماء والصَّالحين . فمَن سار في خُلُقه وتنميَته لأفعاله على هذه المدرسة بِنِيَّةِ الاتباع والتطوير نالَ من الله أجر اتباع السُّنَّة فصار الخُلُق والفعلُ عنده مأجورًا ومباركًا .

الدعاء الصالح .

لقد تعلَّمْنا من المدرسة المُحمَّدية ، وبالتجارب الشخصيَّة، أن لا شيء يعين الإنسان على قضاء ما يريد أكثر من الدعاء، فهو طلب الحاجة من صاحبها بوجهٍ مباشر ، دون حاجةٍ لواسطةٍ أو دليل ، وهي وسيلة مُيسَّرةٌ للكبير والصغير، المخطئ والمُقصِّر - وكلنا مُقَصِّر - فالله لا يرفض أحدًا . فمتى حاول الإنسان أن يُدَرِّبَ نفسه ويربيها أو يربي النشء القادم ، فإنَّ الدعاء هو سلاحٌ لابد منه ، ووسيلة لابد له من استخدامها ، فيدعو الله على حُسن التطبيق وعلى بركة الإرشاد ، وليوقن بأن الله مجيب إياه لا محالة .

فهم الجزاء والثواب .

يفهم المرء ولاشك أنه في دنيا زائلة ، مأمور بعمارتها وإعطائها حقَّها من العناية والعمل وهذا واضح بالضرورة في قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا» [1] وإنَّ من إعطاء الدنيا حقها أن تفهم تقلُّباتِها وتُدرِك تمام حقِّها واعيًا أنَّ خلف هذه الدنيا يقوم الناس جميعًا لحسابهم ، وتكون نتيجة هذا الفهم أن تتأثر الأخلاق والأفعال ، فيعلم الإنسان أن ما يقوم به اليوم من فعل وخُلُق فإنه عليه مُحاسَب ، فيُحاسَبُ الصادق على صدقه ، والأمين على أمانته ، والمتكبر على سوء تكبره، والفاجر على ما فجر به ، وحتى نصل إلى قولنا : "الراحمون يرحمهم الرحمن " ![2]

ولا ينسى المرء أن الدنيا تتقلب وفق النَّواميسِ التي أقرها الخالق ، فيُوَفىَّ أهل الصدق صدقهم ، ويأتي الخيرُ أهلَه ولو بعد حين ، فمن بات ظالمًا فسوف يُظلَم ، ومن أصبح قاتلًا يبشر بالقتل وإن طالت به الأقدار ، وكذا خائن العهود أو المُفشي للأسرار بعد الائتمان ، فيكونُ على الإنسان أن يستشعر في كل تصرف ما يأتي

---

١. رواه أحمد وصححه الألباني في «الصحيحة»

٢. حديث صحيح حسن اخرجه احمد والحاكم واخرجه ابو داود

عاقبة هذا التصرف ، وأن يتخيل نفسَه وقد انقلبت الدنيا بتقلبها ، فصار هو في دور الضحية ، ويومها لا ينفع أهل الخزي صياح ولا نواح !

البيئة وما حولها .

كلُّ مَن أنهى المرحلة الابتدائية ، تعلم بها أن الإنسان جزء من بيئته ، يتأثر بها بشكل مستمر ويُأَثِّرُ بها بالسلب والإيجاب ، هذا مُثبَتٌ بالتجربة القطعيَّة ، وبالتالي يكونُ على الإنسان المُرَبّي لنَفْسِه وللنشء من بعده أن يفقه تأثير البيئة الكبير على صناعة التربية ، فيُحصِّنَ التربية بالبيئة الخصبة التي ترعى الخير ، سواء كانت عن طريق المنزل أو المجتمع ، الأقارب أو الأصحاب ، الأمور التي يتعرض لها و الأمور التي يُصدِرُها ويكافِئ عليها ، كلها عوامل من عوامل البيئة تؤثر في تربية الإنسان عقليًا وقلبيًا ، تؤثر به بنقطة بيضاء أو سوداء ، وتتراكم تلك النقاط لترسم صورة يصعب بعد حين تغيرها ولا يستحيل .

تلك العوامل وغيرها ، لابد أن تبقى من العناوين الرئيسة في كل جانب من جوانب الأخلاق ، ويبقى على المربيِّ لنَفْسِه أو لغيره

أن يستخدمها ويطَبِّقَ عليها كل خُلُقٍ من الأخلاق ، فهي عناوين كبيرة ، ومِظَلّاتٍ واسعة ، تندرج تحتها عموم الأخلاق ، فكان لزامًا علينا قبل تناول الأخلاق أن نشير إلى هذه المِظلّات بصورة المثال وليس الحصر ، وإيمانًا منا بأهميتها ذُكِرَت قبل الشروع في الأمر كله، لتكون قوالب جاهزة للتطبيق على كل ما سوف يأتي ، وكل ما لن يُذكَر ، فكل فكرة إنما هي وليدة لحظتها وحاجتها ، يستطيع الإنسان أن يطورها وينميها لتستخدم بما يتشابه و غايته.

وصية الختام ، اجعل لنفسك في كل خُلُقٍ تريد تطويره قوالب عديدة ، وصُبَّ هذا الخلق في تلك القوالب كلها ، ثم لا تهمل من تلك القوالب شيئًا فكل واحد منها يكمل الآخر في تمكين النَّفْسِ من الخُلُقِ وتقويته حتى الكمال .

بسم الله نبدأ ..

صدق الصديق أبو بكر .

بطاقة الصحابي :

اسمه : عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي . ويكنى بأبي بكر.

ولادته : ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر .

لقبه : عتيق ، والصدِّيق .

فأما عتيق ، فيكثر فيها القول ، منها : كانت أم أبي بكر لا يعيش لها ولد ، فلما ولدته استقبلت به البيت ، فقالت : اللهم إن هذا عتيقك من الموت ، فهبه لي ، ومنها لعتاقة وجهه وغير ذلك .

وأما الصديق، فقد سماه الله ونبيه ﷺ بذلك في مواطن عديدة؛ فأما تسمية الله له فذلك في قول الله تعالى: (وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) وفي تسمية الرسول

ﷺ له مواطن منها : (روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أن النبيﷺ صعد أُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم

فقال: «اثبت أُحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»).

وقيل ، لأنه أول من صدّق وآمن بالنبي ﷺ من الرجال .

وفاته : توفي في يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث

عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة .

تلك الوقفة الواثقة ، التي كان عليها الصديق أبو بكر – رضوان الله عليه – بين اجتماع المشركين الشامتين ، يقفون بكل فصاحة لسانهم وسفاهة عقولهم حول الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ .

كان رسولنا ﷺ واقفًا بين الجموع، يصف للمشركين ما رآه في بيت المقدس ، كأنه يراه ، فيصف الأركان البعيدة ، والزوايا القريبة ، يصف التفاصيل الدقيقة التي لا يلحظها إلا ماكث في ربوع المسجد

الأقصى ، ويحكي لهم عن الأمارات والإشارات المعروفة في بيت المقدس ، وبين دقة الوصف و ثبات البلاغ ، كانت أصوات المشركين تعلو على تعجبهم ودهشتهم بالتهكم والاستهجان على ما يقوله النبي ﷺ ، وبين هؤلاء كان أبو بكر يردد في ثقة بالغة ، وثبات منقطع النظير . صدقت يا رسول الله ، صدقت يا رسول الله !

قبل ذاك الموقف بوقت بسيط ، كانت الجموع قد بدأت تجمعها حول النبي ﷺ ، ينقل الواحد منهم الخبر إلى الجماعة، " إن محمدًا يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد من ليلته"ولعل أحدهم تطاول على صاحب المقام الرفيع والخلق العظيم فوصفوه بالسّفه والجنون والكذب ، حاشاه ! ومن الذين تناقل الخبر إليهم، بل لعل الخبر قد بلغه مع سبق الإصرار والترصد، هو صاحب رسول اللهﷺ أبو بكر الصديق. فأخذ الناقل تلو الناقل ، يأتي على أبي بكر ويخبره بكامل التشفي وبكل التشكيك "يا أبا بكر ، إن صاحبك يزعم أنه زار بيت المقدس من ليلته وعاد، ونحن نضرب أكباد الإبل إليها أشهرًا!"فيقول الصديق صاحب الصدق .. " إن كان قالها فقد صدق ! "[١].

---

١. [٢١٨١] رواه الحاكم (٨١/٣) (٤٤٥٨)، وعبد الرزاق في ((المصنف)) (٣٢١/٥)، والآجري في ((الشريعة)) (١٠٣٠). وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٣٠٦): متواتر.

إذاً هو الصدق ، ذاك الخلق العظيم الذي كان في الدرجة الثانية من صفات البشر ، لا يسبقه في العلو والسمو سوى النبوة . الصدق الذي ما عرف به أحد إلا عزّه ورفع من قدره ، ولا عجب أن كان الصدق سيد الأخلاق وأشملها ، بل وركن مستقر من أركان التعاملات. فلا تقوم في الدنيا وثيقة ، ولا يلتزم كائن مع آخر ، ولا يقبل عملٌ أو خبر .. إلا بتقديم قربة الصدق تقديمًا وتأكيدًا .

معنى الصدق لغةً:

الصدق ضدُّ الكذب، صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا، وصَدَّقه: قَبِل قولَه، وصدَقَه الحديث: أَنبأَه بالصِّدْق، ويقال: صَدَقْتُ القومَ. أي: قلت لهم صِدْقًا وتصادقا في الحديث وفي المودة. [١]

معنى الصدق اصطلاحًا:

الصدق: "هو الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب". [٢] وقال الباجي: "الصدق الوصف للمخبرَ عنه على ما هو به" [٣] وقال الراغب الأصفهاني: "الصدق مطابقة القول الضمير

١. (لسان العرب) لابن منظور [١٩٣/١٠]، (مختار الصحاح) للرازي [ص١٧٤].
٢. (الواضح في أصول الفقه) لابن عقيل [١٢٩/١].
٣. (إحكام الفصول) للباجي [ص ٢٣٥].

والمخبرَ عنه معًا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقًا تامًّا"[1]

ويمر تطبيق الصدق في الحياة على مراحل مهمة ، فالأمر ليس في تجريد الصدق من توابعه ، بل بإلحاق الصفات العظام ، ومكارم الأخلاق ، وزينة الشخصية ، التي تنبع من الصدق . فيأتي مع الصدق الوفاء ، ويلحق بالصدق شجاعة المرء ، ويعتلي الصادق الأمانة ، ويكون في غمد الصادق الثقة فتراه به رزينًا ومهابًا ، فالصادق في كل حاله واثق بنفسه وبحديثه وبأحواله ، لا يتزعزع مع المشككين ، ولا يلتفت لأهل الشائعات وصانعيها . ولعل أول ما على المرء تعلمه والتطبع به هو الصدق وأركانه الرئيسة ، فبداية الصدق تكون بالصدق مع الله ، فإذا صدق الإنسان مع الله ، وجب عليه وجوب تصديق لصدقه أن يصدق مع الناس ، ولعل الجملة تبدو فلسفية رغم بساطة معناها و حقيقة إقرارها ، ولا يكون الصادق مع الله و مع الناس إلا صادقاً مع نفسه بالضرورة ، فلا شيء يهزه إن هو حقق ركنين أن يكمل الركن الثالث ببساطة . ولعلنا هنا نفصل ..

---

١. (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للراغب الأصفهاني [ص ٢٧٠].

الصدق مع الله .

هنا المنزلة العليا، والمسؤولية الأعظم، أن تكون صادقًا مع الله سبحانه وتعالى. هي العليا لأنها نقية وصافية، حيث لا مجال ولا سبيل مطلقًا لتشويه هذا الصدق أو خلطه بالزيف والتدليس ، فالتعامل مع الله يعني الشفافية المطلقة ، بل ربما درجة أعمق ، فهو لا يخفى عليه شيء ، يعلم السر وأخفى ! إن عملية الصدق مع الله ، ترتفع بالإنسان وتسمو به لأنها تنقله من التعامل المادي المحض إلى جانب التعامل الروحاني الذي يستشعره بالقلب ، ثم يلمسه بالحواس . فالصادق مع الله هو المؤمن الحق بقيمة الذي يعلم السر وأخفى ، فلا تلبيس لإبليس ، ولا خلط في النوايا ، إنما تصفية لكل نية و وزن لكل عمل لأن الله يعلم خفايا الأمر كله ، وقد يحاول الإنسان جاهدًا أن يقنع ذاته بما يخالف الحق، ولكنه لن يقدر على فعل ذلك مع الله ... تذكر ، السر وأخفى !

التعامل الشفاف الواضح ، هو طريق لكل نجاح ، طريق معبد الأرضية ، سريع الوصول ، ولذلك كان الصدق مع الله معبدًا وواضح المعالم ، فمن صدق مع الله ، صدقه الله وأكرمه ، بل وآتاه ما لم

يكن لغيره ، لأن الصدق مع الله مقترن بالإيمان ابتداءً ، فالصدق مع الله يمر ممر الإيمان بأن الله مطلع على كل حال ، عالم بكل تفصيل، لا تخفى عليه خافية ، ولا يفوته شيء ، وهذه منزلة من الإيمان عظيمة ، فالصدق مع الله ، يمر من الإيمان ممرًا عظيماً. ثم ما يتأخر هذا أن يمر بالمرحلة التالية ، وهي تصديق الإيمان بالعمل في الجوارح ، فيكون الصدق مع الله في بادئ الأمر ، شرارة ينطلق منها الإيمان الذي يقتضي التصديق بالجوارح ، فيكون المؤمن بالله عاملًا بما أمره الله ، متوقفًا عن ما نهاه الله عنه ، مؤمنًا برسوله ﷺ ورسالته ، عارفاً بالملائكة الكرام ، ورؤية اليوم الآخر رؤيا الواثق بلا حجاب يحجبك ، ويتحقق مع هذا الركن الأخير أن تؤمن أن القدر خيره وشره هو لك ، لأنك مع الله صادق. وكل هذا يرى جليًا واضحًا في موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه فالثقة بالله والصدق مع الله ، جعلاه مؤمنًا، مصدقًا مكتمل الإيمان برسالة النبي الأعظم ﷺ فما قال محمد بن عبد الله ﷺ أنه زار بيت المقدس، إلا وصدّقه وآمن به إيماناً برسل الله ، ومعرفة بأن ملائكة الله العاملين بأمر الله على مقدرة بنقل رسوله ﷺ من البيت الحرام إلى بيت المقدس ، وتحقق مع هذا الإيمان معرفة أنك سوف تلاقي الله في اليوم الآخر، فلا

يكون لك أن تكذب على الله أو تشكك برسله وكتبه وملائكته ، ويكون هذا التصديق مصحوبًا باليقين ، لأن القدر خيره وشره من الله .

إذاً ..

هي تلك المشاعر المتكاملة، اكتمل بها قلب أبي بكر الصديق، وهو يردد.. "صدقت يا رسول الله". لقد صدق الصديق مع ربه، فكانت الشرارة الأولى، شرارة الانطلاق ! والتطور الطبيعي لهذه الشرارة أن ينطلق منها الإيمان.. ومن ثم تصديق هذا الإيمان بالجوارح كما وضحنا سابقًا ، فكان الناتج طريقًا معبدًا .. "صدقت يا رسول الله !" .. تحمل الصفات جميعها.. لقد صدق أبو بكر مع الله .. فآمن به ..

ويقتضي ذلك .. آمن برسوله، آمن بكتبه، آمن بملائكته، آمن باليوم الأخر، آمن بالقدر خيره وشره .

تفكر يا رعاك الله .. أي شيء من هذه الأركان الستة مفقود في قول أبو بكر "صدقت يا رسول الله " ؟!

نعم صدقت، لأنني مؤمن بأنك الرسول من عند الله، مؤمن بك وبكتابك.. ذاك لأني صدقت مع الله، فآمنت به .. وإيماناً برسالتك وبكتابك، هو تصديق الإيمان بالجوارح .

نعم صدقت، لأنني مؤمن بأن قدرة الله واسعة، وجنده مستعملون على أمره، فأنا مؤمن بملائكة الله، وباستعمال الله لهم مؤمن بذلك، لأن هذا الإيمان يندرج تحت تصديق الجوارح لإيماني الذي جاء من صدقي مع الله .

نعم صدقت، لأني ما كنت لأجحد رسول الله ولا كتابه ولا قدرته في ملائكته، ذاك لأني ملاقيه حتمًا في يوم تبيض فيه وجوه وتسود فيه أخرى، هو ذلك اليوم الآخر ..

الذي أؤمن بحقيقته إيمانًا لا شك فيه، ينبع من تصديقي بإيماني النابع من صدقي مع الله .

نعم نعم نعم ، صدقت !

ذاك لأني ما كنت لأغيب عن الموقف ، أو أحجب التصريح بتصديقي لك ولرسالتك يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فأنا متقلب في القدر خيره وشره ، كله من عند الله . الله الذي قد صدقته وآمنت به .

تلك الأركان الستة ، حققها الصديق في موقفه ..

تحقيقًا ، تقريرًا وتثبيتًا .. لصدقه مع الله .

الصدق مع الناس .

هنا يتجلى التعامل المادي بالصدق ، الذي يستشعر بالحواس على الشكل الأمثل ، فالصدق في التعامل مع الناس يورث الإنسان صفات وضحناها سابقًا من الوفاء والشجاعة والاتزان وغير ذلك، وكلها أخلاق حميدة من امتاز بها بلغ الثريا ، وتعلقت به القلوب، وثبت على فعله القدوة . والصدق مع عموم الناس واجب لا شك فيه ، وله تبعات كثيرة بحسب منزلة الصادق ، فالصدق مع الأهل وقبل ذلك الصدق مع الوالدين والزوجة ، وصدق الراعي مع رعيته باختلاف تشبيه الراعي والرعية ، ويمتد ذلك للتعاملات الفردية والجماعية ، ليصل ذلك إلى المدى في صدق إيفاء العهود كدول عظمى و مؤسسات كبرى .

ولعل صدق الراعي مع رعيته ، يتوسع تفسيره ويكثر تأويله، فمتى صدق الوالد مع ذريته أورثهم الصدق في كل حالهم ، فصار الصدق عندهم فوق الخلق طبيعة يعتادونها ، فيكون نتاجها أن يصدق الأولاد مع والدهم ويكون الأثر حينها واضحًا على حسن التربية و علوّ الثقة بين الوالد وولده ، لأن الصدق كما أسلفنا طريق معبد، فمتى مد

هذا الطريق على مصراعيه بين الوالد وولده، جعلت القنوات بينهم مفتوحة ، والتواصل بينهم دائم مما سوف يشكل تقارباً يسهّل عملية التربية ويجعلها أشبه بالرضاعة . ولا يتوقف صدق الراعي مع رعيته في هذا المثل ، بل يشمل صدق رب الأسرة مع زوجته ، والعكس في هذا ، وهذا الصدق واجب على كلا الطرفين بما فيه نفع ، فيكون لهذا الصدق ثمرة التقرب والثقة، والاطمئنان الذي كان أساسًا من أساسات التزاوج ، فأي معنى يتفوق في مجال الاطمئنان إذا ما ترادف مع قوله "لتسكنوا إليها" ، تلك الآية العظيمة التي اختتمت بالمودة والرحمة . فالصدق بين رب الأسرة وزوجته وصدق الزوجة مع زوجها باب من أبواب الرحمة والمودة والتي بدونها تعدم الحياة الزوجية وتتحول إلى جحيم . والأمثلة كثيرة جدًا لا حصر لها عن أسر عظيمة ، بالمودة والرحمة وقفت وكان النمو طبعًا لها فانعكس ذلك على نتاجها في المجتمع من خلال إنشاء جيل صحيح قويم ، ومن خلال التأثير المباشر في المجتمع بالأفعال ، وعلى الجهة المقابلة ، أسر أخرى كان غياب الصدق فيها خراب ودمار ، وانعكاس لكل مفسدة . فالأسرة الأسرة ، متى صلحت بالصدق جاء المجتمع الصالح ، ومتى فسدت ، دخل الماء إلى سفينة المجتمع فغرقت وأغرقت .

فالراعي والرعية إذاً مفتاح من مفاتيح الصدق مع الناس، وهذا يشمل صدق ولي الأمر العام مع شعبه ، فيصدقهم النوايا والعمل ، هذا الصدق الذي يضمن له ثقة الجمهور أو الشعب، ويضمن للشعب معرفته ومراقبته لكيفية إدارة مصالحه وأمواله، فمتى صدق الوالي العام على الشعب ، انعكس صدقه على نموّ المجتمع والدولة ، فلا سارق يسرق إلا عوقب في دولة الصدق ، ولا فاسد يفسد بالرشوة والتعيين لمن لا يستحق في دولة الصدق ، ولا أي مظهر من مظاهر الفساد يدوم وينتشر في دولة الصدق ، لأنها دولة صَدَق بها الوالي مع رعيته ، فعرض عليهم ما كان من مفسدة لمصالحهم ، فتقوّى بهم على الباطل ، ليكون الوالي العام بشعبه معول بناء وتطور ، وكل ذلك بالصدق .

وهذا كان في أبي بكر ، لقد كان صادقًا مع الناس في موقفه، لم يتردد ..

قالوا "أدرك صاحبك، يقول محمد أنه زار بيت المقدس .." فيجيب بوضوح مع الناس "إن قالها فقد صدق"، لم يهتم حينها إلى ما قد يكون رد الفعل منهم مطلقًا ، فهو قد كان صادقًا معهم حين

نقل إيمانه بالرسول وكتابه و ملائكة ربه لهم .. تلك الخلطة القلبية التي جرت في قلب الصديق أبي بكر وهو يقول "صدقت يا رسول الله" ما أخفاها عن الناس ، بل أعلنها واضحة لهم ، لأنه يعلم قيمة هذا الصدق .

وأي قيمة ؟ قيمة خلدها التاريخ ، فصارت مثلًا يذكر، ودرسًا يقال ليكون عظة لمن يتعظ و باباً يطرقه من أراد ترويض قلبه، أبوبكر .. لم يحتفظ بإيمانه وصدقه مع ربه في قلبه .. بل نقله للناس.. صدقًا مع الناس !

الصدق مع النفس .

هنا الكوكب الدرّيّ من الصدق ، أن تَصدُق مع ذاتك فلا تخدعها ، وكم من مخادع لنفسه ، مقنع إياها بما لا يكون لها، فيواصل على نفسه إقناعها فتقتنع ، وآخر صدق مع نفسه فكسبها واطمئنّ بها ولا يكون هذا إلا لأهل التقوى .

فالصدق مع النفس أن تغسل الروح من عفن الرياء ، وفساد الادعاء ، فتكون صادق الباطن ، فمن صدق باطنه وحسن داخله، انعكس ذلك على الظاهر منه ، الناتج عنه . وهنا منقبة عظيمة لمن

أدركها ومنعرج خطير لمن تورط ، فالمنافق كما هو معلوم يظهر ما لا يبطن وآياته واضحة ، فهو الذي إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف، وإن اؤتمن خان . وكلها أمور تتعلق بالصدق ، الصدق مع النفس. ولعظيم أمر الصدق مع النفس ، يكون الصدق مع النفس متصلاً بالتلاصق مع الصدق مع الله ، فمن صدق قراره ، كان هذا الصدق نتاج صدقه مع الله ، أو لعله نتاج صدق الله له .

إن الذي تشابه خارجه بظاهره ، شخصية مستقرة ، ثابتة في سيرها لا تلتفت حول نباح النابحين ، ولا تصعر خدها للمروّجين ، لأنها واضحة ، مطمئنّة . فإذا حدث بالأمر لا يفكر في توابعه لأنه قد عوّد النفس على صدق القول ، فلا يتعارض قوله اليوم ، مع ما يقوله غدًا ، أو ما نقله البارحة ، ومن باب أولى فإنّ هذا التعارض لا يكون بين الأقوال والأفعال ، وهنا الراحة العظيمة والسعادة الحقيقية لمن يبحث عنها .

وإنّ من علامات قبول الصدق مع النفس ، توفيق الله لسريرتك، وهذا واضح كالشمس في موقف أبي بكر الصديق رضوان الله عليه، فمن بين جموع الكفرة ، ومن بين نباح المشككين ، يشعّ الفجر من

ثغر أبي بكر ، وليس في الأمر من رياء ، فلو كان في الأمر رياء أو مفسدة لمحقها الله كما محقت أقوال المشككين والمستهزئين ، بل ثبت الموقف ، وأصبح درسًا على مر العصور ، وكأنه مصاحب لصاحب الصدق والصحبة ، والذي نزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة . وثبت به قول المصطفى ﷺ: «لم يسبقكم بصلاة أو صيام ولكن بشيء وقر في قلبه » .

ولعل أصدق ما وصف الصدق به قول الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين حيث يقول ابن القيم في الصدق إنه: "منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه، الذي ما وُضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم تردَّ صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النبوة، التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم

في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين، وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[1][2]

الصدق بين التنمية والتطبيق

وتكون الأفكار عائمة، تسبح في محيط العقل بين أمواج أفكاره المتضاربة ، فإذا نزلت فعلاً استقرت وتطورت وأصاب النماء أطرافها فشملت ما دونها وما يحيط بها . ومن أجل التطبيق تتحول الفكرة المصنعة للفهم إلى فكرة أكثر بساطة لتنزل إلى عجلات التطبيق، وهنا نطرح بعض الأفكار المسطحة للتطبيق، وهي أمثلة للتشبيه وليست باب من أبواب الحصر .

١. إصلاح السريرة عمل تبدأ به .

إن من أهم ركائز تطبيق الصدق كعمل يومي عند الإنسان ، بحيث أن يتعود عليه ويطوره في خلقه أن يشرع به من الأساس

---

١. [التوبة:١١٩] .

٢. (مدارج السالكين) لابن القيم [٥/٣].

الصحيح ، فيكون صادقًا مع الله سبحانه وتعالى تمام الصدق . لأن هذا الصدق هو الصدق الخالص الذي لا ينقطع ، فأنت لا يمكنك بشكل من الأشكال خديعة من اطلع على الحق نشأة ومآلًا ، فالله مطلع على الحق ، يعلم وقعه في قلبك ، وتنفيذه في فعلك أو قولك . والله باقٍ لا نهاية له ، فأنت حين تدرب نفسك وتعلمها على الصدق مع الله تكون صادقًا في كل حالك لا تفتر ، فمراقبته لا تغيب وإطلاعه عليك لا ينقص .

ومن هنا تجد أن إصلاحك لسريرتك هي منشأ الصدق ، فإذا صدقت في داخلك انعكس هذا على فعلك وقولك ، فتكون صادقًا في فعلك لا تخالطه بريبة أو خداع ، وتكون جهاز كشف لأقوالك قبل النطق بها فلا تنطق إلا بما تؤمن به ويصدق لظفه .

٢. الثقة بالنفس .

للكذب حجج واهية ، نجعلها ونضعها لنبرر للنفس سبب هروبها من الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى ما يجانب الحق من الباطل. ولعل من أكثر الحجج المتداولة أن يقنع الإنسان نفسه أن الظروف تجبره على الكذب ، وأن الأصلح للحال والحفظ على الاستقرار

يكون بأن يقول الإنسان ما يجانب الصدق ولا يصيبه . ولكن الواثق من ذاته ، المكتسب لخلق الشجاعة يدرك لزامًا أن لا ظروف تعاند شخصه ، ولا مسببات يضعها ليقنع بها عقله وقلبه ، فالصدق لا خيار ينازعه ولا منافسة يحل له بديلًا .

وتأتي الثقة بالنفس مسببة للصدق ، لأن الصادق قادر على أن يتحمل مسؤولية أقواله ويتحمل نتاج أفعاله ، لا يخفيها ويبطنها لثقته بنفسه وقدرته على التصرف بما هو مؤمن به ، فهو ينبري لكل خطأ ويقف عند كل تقصير فالهروب ليس خيارًا متاحًا والتخفي بالنسبة له انهزام . ويكون للثقة بالنفس جانب آخر من الجوانب التي تعين الإنسان على الصدق ، فالواثق بنفسه لا ينجر إلى ممارسة الكذب ليحافظ على لمعان شخصه فهو يرفض أن يتصنع بحال ليس عليه ، ولا يطبق أمرًا ليس عليه واقعه ، ولا يقبل أن يكسر ذاته من الداخل بالكذب ليحافظ على كبريائه الخارجي من أن يصيبه أذى من الناس كلامًا أو غيبة . إنه عارف بطبيعة نفسه ، موقن أن لا أحد في عالمنا له سلطة عليه ولا حكم لأحد من المخلوقات أهم من حكمه على ذاته . وبذاك يكون للواثق من نفسه باب عظيم يعينه على الصدق .

٣. المبادئ الصالحة .

الإيمان بالمبادئ يمر في مرحلة مهمة وهو اليقين بها والتحقق منها بل ويصل حتى مرحلة استشعار وقعها . فإذا استقر المبدئ في القلب ووقع من الفؤاد وقع الإيمان الراسخ يكون بابًا من أبواب الصدق . فالراسخ على مبادئه ، الواقف عند حدودها لا يطرق باب الكذب مطلقًا ، فهو لا يقبل ولا يرضى بأن تشوه مبادئه الصحيحة كذبة، لأنه يعلم تمامًا أن حقيقة هذه المبادئ محضة لا شك فيها، ولذلك يطرحها بصدق لا يجامل بها ولا يخفي نقصها لأن المبادئ الصحيحة الراسخة لا نقص فيها .

٤. افعل ما تقول، وتحدث باتزان عما تفعل وشجع الناس له .

ولأن الإنسان يتأثر في البيئة المحيطة ويتأثر بها ، يبقى وسيلة إجبار الذات من الوسائل المستخدمة لإنجاز ما يتمنى المرء إنجازه، وفي باب الصدق وممارسته، يتوجب على المرء بعد أن يشرع في تحري الصدق في قوله وفعله، أن لا يخفي ذلك في حديثه ، بل أن يسعى إلى تشجيع الصدق وذكره باتزان ، ليكون هذا توعويًا لغيره،

ويكون قوله هذا ميزانًا ثابتًا ووثاقًا يربطه على نفسه ليشده إلى الصدق ويتعلق به. لا تتحدث قبل أن تبدأ ، وإن بدأت فاجتهد ثم استخدم كل تعهد وميثاق لتجبر نفسك على البقاء والتمسك.

٥. تجنب اللغو .

من أبواب الكذب كثرة الحديث، واللغو بما لا يفيد أو الإكثار حتى من المفيد فيصير الحديث لغوًا وحشوًا . إن الاتزان في اختيار الألفاظ والأقوال ، والاكتفاء بما ينفع والسكوت عما تقل منفعته فضلًا عما يتوقع منه ضرر لواحد من أهم طرق التزام الصدق ، فأنت ما قللت حديثك وحرصت أن تبقيه هادفًا ، قلَت الحاجة إلى حشو قد يذهب قيمة الصدق وفعله . ولعلنا في سبيل تطبيق الصدق وتنميته في المجتمع ، لابد لنا أن نضبط أنفسنا في الاستفسار عن الآخر وكثرة الإلحاح عليه في طلب معلومة لا تنفع أو الجدال في أمر لا يرجى وصول الهدف منه . فلعلك في إحراجك للآخر بالسؤال في التفاصيل الصغيرة ، وكثرة التدخل في حياته الشخصية التي لا يكون الخوض فيها لرجو منفعة ، باب من أبواب الكذب التي تفتح عن طريق اللغو . لنتجنب اللغو في كل حاله حديثًا وسؤالًا .

٦. التربية الصالحة للإنسان الصادق.

لابد للمربي أن يحرص على إيجاد الوسائل المناسبة لتحفيز الطفل على الصدق ، بداية أن يمارس الصدق معه في الجد والهزل، فيكون معه صادقًا وحريصًا على أن لا يكون هناك منفعة إلا بالصدق ، ويكون التطبيق واضحًا أمام الطفل بأن الكذب لا ينجيه من العقوبة ولا يدفع عنه الضرر . ويتعامل المربي بذلك في كل حاله ، فيكون محفزًا بالأسلوب المعنوي والمادي للصادق على صدقه وإن قصر أو اقترف ذنبًا ، ويكون حريصًا ، بل شديد الحرص على كثرة الحديث عن الصدق سيرة من سير أهل الصلاح والنجاح، وذم الكذب في كل مقام ومقال . وأن ينمي في طفله الصدق في اللعب ، والصدق في الطلب ، والصدق في التحدث مع الآخر وحتى الصدق في المزاح . فيذم أمامه الكاذب ، ويمدح أمامه الصادق . يحب الطفل أن تضع له شعارًا وعلم .. فاجعل هذه الجملة له علمًا .. « تكتب عند الله صديقًا ، بصدقك !»

عنوان أساسيات التطبيق .

ومما لا يخفى على أحد ، بأن الصدق من التطبيقات التي أمرنا الله بها ، فيكون ممارسها إن صلحت نيته عابدًا بفعله متقربًا إلى الله ، يستعين على ذلك من أصحاب النهج الصحيح فالقصص في تحري الصدق عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه كثير أكبر من أن يحصى . وتذكر الآخرة في حياة الإنسان مؤدب له في تجنب كل قبيح وتحفيز له في إتيان كل ما أمر به من الله تعالى ، لانه لا شك يلقى الجزاء على الإحسان والعقوبة على تقصير ، كما أن تذكير النفس بحب الناس للصادق وصدقه ، وبغضهم وابتعادهم عن الكذب واهله ، فالناس تنفر من الكاذب وتبتعد عن صفاته. ولعلنا ونحن نذكر أنفسنا علينا أن نحرص أيضًا من معرفة أن الأحوال تتبدل وتتغير ، فمن نصدق معه فيفرح ، ونخدعه فيتضرر ويحزن، هو الآخر مشارك في بيئتنا فقد يفرحنا بصدقه أو يضرنا كذبه .

وتبقى هذه الأفكار أسماك في مصيدة داخل محيط الحياة الكبير ، تمتلئ الحياة بغيرها من التطبيقات ولكل باب من الأبواب المذكورة أعلاه تشعبات كثيرة ، نسردها لتكون ناقوسًا تذكرنا بغيرها وتعبد لنا طريق التنفيذ .

وعند ذكر أبي بكر ، ننقل ما قاله الصحابي الجليل البراء بن عازب حين سأل خليفة رسول الله ﷺ عن رحلة الهجرة إلى المدينة، لينقل لنا أجمل معاني الاهتمام ، وأصدق مواقع الصدق والإيمان، فقد كان في الهجرة العظيمة أمور وعبر، منها حيث اشتد الحر وقت الظهيرة على الركب المبارك ، فانطلقوا إلى صخرة يحتمون بظلها، ففرش الأرض أبو بكر للرسول ﷺ، وقال "اضطجع يا نبي الله" فاضطجع ، وذهب الصدّيق ينظر حوله في الخبر فرأى غلامًا يرعى الغنم، يسوقه إلى ذات الصخرة لينهل من ظلّها ، فحدثه وعرفه، ولما أخذ من لبن الغنم ، صبّه حتى يبرد أسفله ، ثم انطلق به إلى الرسولﷺ ، انطلق إلى الرجل الذي يؤمن به ويصدقه ، ليسقيه من ذاك اللبن ، فلقيه وقد استيقظ من نومه، هنا توقف التاريخ مسطرًا لمقولة أبي بكر "فشرب رسول الله ﷺ حتى ارتويت !" . هذا المنزل العظيم ، بلغه أبو بكر بالصدق، الصدق الذي وقر في قلبه ، ليكون إيمان الأمة في كفة و إيمان أبي بكر يزنه في الكفة المقابلة .

رحم الله شيخنا أبا بكر ، عرفناه حبًا لأنه بالحب حمل دين الله ورسالته ورسوله .

تواضعَ عُمر، فَرَفَعَهُ اللهُ في القلوب.

بطاقةُ الصَّحابيِّ

اسمُه: هو عمرُ بنُ الخطَّابِ بنُ نُفيلٍ القُرَشِيّ العَدويّ؛ يجتمع نسَبُهُ معَ رَسولِ اللهِ ﷺ في كعبِ بنِ لؤيٍ بنِ غالبٍ، ويُكنَّى بأبي حفص.

وصْفُه: كان طويلاً جسيماً، شديدَ الصّلَعِ، شديدَ الحُمْرَةِ، في عارِضَيْهِ خِفَّةٌ، وسَبَلَتُهُ كبيرةٌ، وفي أطرافِها صُهْبَةٌ، وإذا حَزَبَهُ أمْرٌ فتَلَها.

ولادَتُهُ: وُلِدَ بعدَ عامِ الفِيْلِ، وبعد مولِدِ الرَّسولِ مُحمَّدٍ بِثلاثَ عَشْرةَ سنةٍ.. تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص:٣٣١).

لقبُه: خليفةُ خليفة رسولِ الله ﷺ، أميرُ المؤمنينَ، لُقِّب بالفاروقِ رضي الله عنه، لأنه أظهرَ الإسلامَ في مكة؛ ففرّقَ اللهُ به بين الكفرِ والإيمان، وقيل لمفارقة الشيطان له.



اشتهرَ بأنه: ثاني الخلفاءِ الراشدينَ؛ مثال على العدل والإنصاف، والزهد والتواضع، وأحدُ العشرةِ المبشرينَ بالجنةِ.

استشهادُه: استُشْهِدَ -رضيَ اللهُ عنهُ- في أواخرِ ذي الحجةِ سنةَ ثلاثٍ وعشرينَ للهجرةِ، بطعنةٍ من عدوٍّ اللهِ أبي لؤلؤةَ المجوسيّ.

هناكَ الكثيرُ

من المواقفِ والمواعظِ التي أُخذت من ارتقاء عمر بن الخطاب في الخطابةِ وتعليمه للناس؛ فقد كان يجمع الناس ليشاورهم ويعلمهم، ولعلنا ننقل الصورة من ارتفاعِهِ على منبرِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومن المعلوم أنه رضي الله عنه كان لا يرقى بنفسه على المنبرِ إلى أقصاه، ذاك المنبر الذي كان قد صُنعَ من درجتين ومقعد، إذ وقف رسولنا - صلى الله عليه وسلم- خطيباً ومعلماً وقائداً على أقصى المنبر، وكان إذا جلس، وضع قدميه الشريفتين على الدرجة الثانية، فلما كان زمنُ خلافةِ خليفةِ رسولِ اللهُ ﷺ أبي بكرٍ، وقف على الدرجة

الثانية وكان إذا جلسَ وضعَ قدمَهُ على الدرجة الأولى، فلما صار الأمر لفاروقِ الأمةِ عمرَ بن الخطابِ جاءَ واقفاً على الدرجة الأولى، لا يرفعُ بنفسهِ إلى موضعِ صاحِبَيْه رسولِنا ﷺ وصدِّيقِ هذه الأمةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه.

صعد على الدرجة عمر بن الخطاب، وكان المنادي قد نادى بالناس: «الصلاة جامعة!»، تلكَ الجُمْلةُ التي كان لقولها هيبةٌ وحضورٌ، فكانت إذا قيلت اجتمعَ الناسُ في بيوتِ اللهِ، يتشاورونَ ويتقاضَونَ في أمورِ دُنياهُم، فالحُكْمُ يخرجُ من بيتِ اللهِ، والتعليمُ يكونُ في بيتِ اللهِ، والشُّورى تُصنَعُ في بيوتِ اللهِ، كُلّها مقترنةٌ بقوله: «الصلاة جامعة!». وإن أساسُ ما يخرجُ من الطّيِّبِ يكونُ طَيّباً، ولا يلحقُ الخيرُ إلا بما هو أهلُه، فكيفَ هو حالُ حُكمٍ ومشورةٍ وتعليمٍ انطلقت من بيوت الله، ومن على منبر رسول الله ﷺ واقترنت بعمود الإسلام، حالها بلا شك أمرعظيم.

بصوتِهِ الجَهور، وهيبته التي تعتليه.. وقف عمر وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! لَقَدْ كنت أَرْعَى الغنم لخَالاتٍ لي مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ؛ فَيَقْبِضْنَ لِي القَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ أَوِ الزَّبِيبِ، فَأَظَلُّ يَوْمِي وَأَيُّ يَوْمٍ».

وسرعانَ ما نزل عن المنبرِ، فتلقّاه عبدالرحمن بن عوفﷺ وخاطَبَهُ بلغةِ العارِفِ لأميرِ المؤمنينَ، المدركِ لحِكْمَتِهِ، الواثقِ مِن حُسْنِ تصرّفِهِ، ينقلُ لهُ لسانَ حالِ الناسِ، حيث أن استغرابهم واستعجابهم لفعلِ أميرِهم كان كبيرًا، هم الرأي العام، هم الشعب والجمهور.

وبلسان الشعب قال عبد الرحمن: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَا زدت على أن عِبتَ نَفْسَكَ».

يقولُها عبدُ الرحمنِ بن عوف، لينقل إلى الأمير حال الرّعية، ليوصل إليه ما قد يكون غاب عنه. ذاك دأب السلف الصالح ، فهم خير العصور حُكْماً وعدلاً، اعتادوا أن يتناصحوا وأن يقبل كل واحد منهم الحقّ من صاحبه، فهم الأساس لكل شورى، والقدوة لكل نصح. بأفضل طرق النصح تعامل عبد الرحمن بن عوف، فما تشفى في نصيحته -وحاشى لمثله - وما ازدجر صاحبَه أو عابَه بل خاطبه بخير ما ينادى به: «يا أميرَ المؤمنين!»، فلستُ المُشَكِّك بِحَالِكَ، ولا المُنْسَحِب عن قرارِكَ، بل أنصَحُكَ وأنا المُكَلَّفُ بالنَّصيحةِ تَبعاً لإماراتِك لنا، وتطبيقاً لبيعتنا لك. «ما زدت على أن عِبتَ نفسَكَ»، كانت جملة استفتاحية، قالها ليُفسحَ المجالَ للشرحِ والتوضيحِ، ليُعبّد الطريق

أمام أميرِ المؤمنين حتى يوضح للعامة من الناس فعلَه وتصرفَه، يدرس لهم ما وقع منه، جملة استفتاح كانت قد قيلت؛ ليبدأ الأمير بها كلامَه وليس ليغلقَ الناصحُ على المنصوحِ الأبوابَ إقراراً لمفسدةٍ أو فضحاً لنقصٍ.

«وَيْحُكَ يَا ابْنَ عَوْفٍ! إِنِّي خَلَوْتُ؛ فَحَدَّثَتْنِي نفسي؛ أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَمَنْ ذَا أَفْضَلُ مِنْكَ؟ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعَرِّفَهَا نَفْسَهَا»[1].

انتهى الدرس ..

إذاً هي الغاية المشروعة، برّرت الوسيلة المستغربة، وكلاهما لم يعِبْه استخدام غير جائز، بل كان ضمن المباح أن يجتمع الناس ويتعلموا من تعليم الأمير لنفسه. فهو القدوة التي اجتمع الناس عليها، وهو الناصح العاملُ المصلِح، يجعلُ من تأديبِهِ لنفسِهِ دَرساً يتّضِحُ أمامَ الشَّعبِ ليتفكروا وليتدارسوا أمورَ أنفسهم ويصلحوا من

---

١. كتاب المجالسة وجواهر العلم للدينوري . رقم الحديث: ١٧٣٨ (حديث موقوف) حَدَّثَنَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ ، نَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، نَا يَحْيَى بْنُ يَعْلَى بْنِ الْحَارِثِ ، نَا أَبِي ، عَنْ أَبِي صَخْرَةَ ، نَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْمَخْزُومِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : " نَادَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالصَّلاةِ جَامِعَةً ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ وَكَثُرُوا ، صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلامُ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَرْعَى عَلَى خَالاتٍ لِي مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ، فَيَقْبِضْنَ لِي الْقَبْضَةَ مِنَ التَّمْرِ أَوِ الزَّبِيبِ ، فَأَظَلُّ يَوْمِي وَأَيُّ يَوْمٍ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ قَمِئْتَ نَفْسَكَ ، يَعْنِي : عِبْتَ ، قَالَ : فَقَالَ : وَيْحُكَ يَا ابْنَ عَوْفٍ ، إِنِّي خَلَوْتُ ، فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي ، قَالَتْ : أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَنْ ذَا أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ فَأَرَدْتُ أَنْ أُعَرِّفَهَا نَفْسَهَا).

أحوالِهم، ولعلَّ الناظرَ في نصيحةِ عبدِ الرحمن بن عوف قد يرى فيها نصيحةً بالتَّسترِّ، رغم أننا نرى أنها جاءت في محلها ليكتملَ بها الدرسُ.

لم يرغب الفاروق بنفسهِ عن الناسِ، معتبراً أنه الرمزَ الأوحد، ذاك الذي لا يجوز أن يُصوّر أمام الناسِ مخطئاً، لم يطلب أن يتمّ تعتيمُ خَلوَتِهِ، وإسكاتِ الأفواهِ عن خطأٍ وقعَ بهِ في خلوَتِهِ، بل كان الأمر أعظم وأحلى! وقف ليتعلمَ الناسُ وقفةً شجاعةً، كان مفادُها: «من عمر لولا الإسلام!».

لو كان غير الفاروق عمر، لأخذ يتفكر ويعلو بنفسه، ويزهو بما كان عنه فيما صحّ من دعاء الرسول ﷺ : «اللهمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجلينِ إليكَ بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، قال : وكان أحبهما إليه عمر»[1]. ولكنه عمر بن الخطاب؛ الذي فهم المعنى الأسمى لانكسار القلب لله، وطبق الخلق الأصعب معرفة أصحاب الفضل وإثبات أهل الحق، فاكتمل في صنعه خلق المؤمنين، فكان من أهل التواضع. فالتواضع هو السرُّ إذاً!

---

١. الترمذي بإسناد صحيح .

التَّواضُع لغةً:

التواضع التذلل، يُقَال: وضَعَ فُلانٌ نَفْسَهُ وضْعاً، ووُضُوعاً بالضَّمِ، وَضَعَةً، بالفَتْحِ: أي أذلَّها. وتَوَاضَعَ الرَّجُلُ: إذا تَذَلَّلَ، وقيل: ذَلَّ وتَخاشَعَ .[١]

ومعناه اصطلاحاً:

رضا الإنسانُ بمنزلةٍ دونَ ما يستحقُّه فضله ومنزلته. وهو وسط بين الكِبْر والضِّعَة، فالضِّعَة: وضع الإنسان نفسه مكاناً يزري به بتضييع حقِّه. والكِبر: رفع نفسه فوق قدره.[٢]

ذاك الخلق العظيم، الذي لما سأل عنه الحسن البصري، فقيل يا إمام ما التواضع؟! قال: «التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً».[٣] وفي هذا الفهم يندرج فهم المؤمن بالله، العارف لصفاته، المؤمن بقدرته وفضله، المستشعر لنعمته العظمى أن جعلنا أهل الإسلام، اختصنا به دون غيرنا، وتفضل علينا بمعرفته وتطبيقه في وقت ضلّ فيه أهل الضلالة، وتلبس الأمر على الناس من تعلقهم بإبليس فهماً وقولاً. فكان التواضع أن يكون

١. العين للفراهيدي ((٢\١٩٦)) .
٢. الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني (٢٩٩).
٣. من كتاب الإحياء: ٣/٢٤٣

جانبك ليِّناً يقبل أن يكون الحق له عنوان، ويقدِّس الصحيحَ معرفة أنه جاء من الرحمن، ويستند بذاته إلى الفضل ويتمسك به ذكراً وشكراً ليَقِينِه أنّ الفضلَ كله من الله ابتداءً.

التواضع مع الله .

هو أثر من آثار المعرفة الحقَّةِ بالله تعالى، فالعارفُ بحقيقة الألوهية، المدركُ لواقع الربوبية، يُقرُّ الأمرَ في قلبه على أن الأمر بيد الله، يقلبه كيف يشاء، فهو الخالق لكل ما هو مخلوق، الموجد لكل ما هو موجود، صاحب الكينونة الأولى، لم يسبقه أحدٌ إلى شيء، ولم يتسبب في وجوده سبب، الأول بلا سباق، والأخير بلا انتهاء، خلق كل شيء، أبدعه ولم يجعل به نقصاً من تقصير أو عيباً من جهل - تعالى الله عن ذلك - بل اقتضت معرفته أن يكون القدر، وشاءت قسمته أن يكون تقسيم الناس والكائنات والمخلوقات على أحوالهم، فجعل بعضهم فوق بعض سِخريَّاً، وما هو بهذا ظالم ، غير أنه لا يحاسبه شيء ولا يراقبه أحد، ولكنه المكتمل بالعدل المطلق، فهو خالق العدل وكاتبه الذي امتاز به وتفرد بمثاليته تعالى الله!

إذاً من عرف ما تقدم، وقع في قلبه على الضرورة أنه يتعامل مع العظيمِ الأوحدِ، ملكِ الملوكِ، وجبارٍ على كل الجبابرة، فلا يصح للمرء مهما علت قيمته، وارتفع سهمه إلا أن يخضع للجليل المتعالي، بل إن المعرفة الحق بالله، تجعلك في أشد درجات التواضع معه، ففي كل قرب تقتربه منه تدرك قيمتك أمام جلال الجليل وعظمة العظيم. ومن فضله سبحانه وتعالى مع عباده، أنه جعل من سنن الحياة وتدابيرها المعروفة التي لا يختلف عليها أحد، أن من تواضع لله، رفعه! وحينما يرفع الله أقواماً فلا مُذِلَّ لها، وحين يرفع شخوصاً فلا خاذلَ يخذِلُها، ولا عدوَّ يردُّها.

فإذاً كيف يكون التواضع لله؟ هو الخضوع الحق، والتجرد الكامل، فالالتزام كلُّهُ بما جاء من أمر، لأنه جاء من العظيم صاحب الفضل، والنبذ والابتعاد عن اقتراف ما جاء من نهي، تسليماً وخضوعاً له.

وإن مما هو ثابت أن التأييد من الله قادم لا محالة، فهو الصادق في وعده لا يخلفه ولا يرجع عنه، ولكنه لاكتماله ومثالية أوامره، ينعم علينا بالوعد كما يشاء وليس كما نرغب بنقص فهمنا وقلة حيلتنا، فالبعض يعزهم الله بالمكانة السامية مسؤولية وعملاً، وذلك لما علم الله فيهم من قوة في صناعة القرار وقدرة على

ترجيح الأمر ومداراة الناس. وآخرون يرفعهم الله في العلم، فيصبحون أئمةً ومناراتِ علمٍ يلتف من حولها الناسُ، ويجتمع تحتها المُريدون، ويتوجه لها الراغبون بالعلم قِبلَةً وقُدْوَةً. ومن رفعة الله لمن تواضع له أن يرزقه منزلة في القلوب، ينزله إياها في قلوب الناس، فتجد المحبين له لخيره، والداعين له بالرحمة والتفضيل، وهذه منزلة عظيمة قد تسبق كل منزلة فكم من صاحب مسؤولية وسلطان بغضه الناس وتناقلوا السوء عنه، وكم من صاحب علم انصرف الناس عنه وعن علمه وما نقلوا عنه إلا لتقصيره في بعض الجوانب، ولكن المتواضع الحق مع الله يرفعه في أول ما يرفعه في قلوب أهل الدنيا من أصحاب الخير، فيذيع صيته بالخيرات، ويرتفع إلى السماوات له من الدعوات، ويرزق القبول، وهذا أثر من آثار محبة الله وجبريل والملائكة له.

ومن موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، هذا كله! فهو الخليفة القائم بالقرار، الحامي للديار، الحافظ للعباد على دينهم وأمور دنياهم، جعله الله مالكاً لهذه الأرض، وأمدَّ في مطارحِ الخيرِ له، ففتح له البلاد وحطمت أمام دولته الدولة، فهو الخليفة الذي نصره الله وأظهره بالحق. وليس ذلك فحسب بل هو العامل بحدود

الله، العارف لمقام الله، المتعلم على يد الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، فكان يتعلم العلم و ينقله للناس تطبيقاً وتوفيقاً من الله، فهو الذي أسس الدواوين، وهو الذي عمل على تنظيم بيت مال المسلمين، والذي اهتم كل الاهتمام بنشر الدين من خلال الفتوحات الإسلامية، وهو الذي نظم إنشاء المدن في الدولة الإسلامية، وغير ذلك من كثير ما وفق الله الفاروق على أن يقوم به وعلمه على أن يصنعه، فرزق به المكانة العليا. وقبل هذا وذاك كان لوقع عمر بن الخطاب في القلوب أمراً جليّاً، فلا يكره أمير الؤمنين عمر بن الخطاب إلا منافق، ولا يبغضه إلا مجنون فاقد لقيمة دينه، فهذه المنزلة التي أُنزِل فيها عمر في قلوب أهل الصلاح والفلاح هي منزلة عظيمة، وما بلغها بكثرة الاجتهاد ولا توالي الإصرار فحسب، بل أنزله الله إياها، لأنه سبحانه يرفع الذين تواضعوا له.

فرفْعُ اللهِ له جعله خليفة للمسلمين .. ورفْعُ اللهِ له أوقفه على منبر رسول الله معلماً.. ورَفْعُ اللهِ له أكسبه الحب في قلوب المحبين المختارين له.. فمن تواضع لله .. رفعه!

التواضع مع الناس.

في أفضل ما يوصف التواضع، أن تتعامل مع الناس مستشعراً لكل واحد منهم فضلاً عليك. وهذا ليس منطلقاً من الإسراف بل من التأدّب، فالناظر من حوله يجد أن لكل شيء خلقه الله من حوله فضل ومشاركة لحياته، فلولا هذه المشاركة لفقدنا قيمة حقيقة من قيم الحياة التي نستشعرها ونعيشها. وإن هذا الاستشعار للخيرية والفضل من الناس، يجعل الإنسان مقيداً عن أمراض القلب وفساده، فلا يتكبّرعلى الآخرين ممن استشعر فضلهم وقيمتهم، ولا يتباهى بماله أو مركزه أو جماله عليهم؛ تأدّباً منه لما لهم من فضل عليه. والمتواضعُ ليّنُ الخلقِ، حسنُ الكلامِ، مؤدّبُ الألفاظِ، لا يرفع صوته ليؤذي غيره، ولا يزدري بأفعاله من هم معه، صادقٌ إذا تحدّثَ، وَفِيٌّ إذا وعد وكل ذلك نتاج طبيعي لمن استشعر أن لمن حوله فضل عليه.

والتواضع بين الناس واجب، لأن التفاضل لا يكون سوى بالتقوى، وعليه لا يتكبر الحاكم على الرّعيّة، فهو أجير لهم على ما جعلوه من حالهم، فيكون لتواضع الحاكم مع الرّعيّة، أن يشاركهم في صناعة القرار، وأن يوضح لهم ما يغيّر حالهم إلى الخير، فيقبل منهم النصيحة، ويطرد عنهم السوء، ويقضي بينهم بالحق، ولا يأنف

بنفسه أن يستمع للعجوز المقعد والصغير المهمّش والمحتاج الفقير، فكلهم جميعاً يتشاركون في جعله مسؤولاً عنهم. والتواضع من نفس الجانب بين الأقران؛ فلا يكون التفوق في جانب ما مدعاة للفخر أو التسلط، بل الناس كلهم من آدم، و آدم جُعِل من تراب هذه الأرض، فما جعل الله الناس سخريّاً بعضهم لبعض، إلا ليكتملوا وليس ليتفاضلوا ويتناحروا، فالتواضع بين الأقران مداعاة للاكتمال، ودعوة حقيقية لصناعة نسيج هذا المجتمع، فالطبيب يعالج مهندس النظافة، ومهندس النظافة يحرص على نظافة المناخ لمهندس البناء، وذاك المهندس الذي يبني مؤسسة المحاسب، الذي بدوره يوفر المال في الدولة ليصل المال إلى الحاكم، فينفق به على الرعية، لينال الخير الطبيب ومهندس النظافة ومهندس البناء و من قبلهم معلمهم الذين علمهم.

وتكون العودة هنا واضحةُ المعالم، فهذا الخليفة يقف على المنبر، يحدِّث الناس عن قناعة لا بد أن تُزرع في قلبه ليستمر عمله وليكمل دوره في هذا المجتمع، شرح لهم ووضّح بحديثه من كان أمامهم لولا الإسلام، وكأنه يسطر القواعد التي عرفت من سيرته حين قال: «نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العِزَّةَ في

غيره أذلَّنا اللهُ» وحينما نزل إلى القوم لم يأنف بنفسه أن يتلقى حديث عبد الرحمن بن عوف بصدرٍ رَحِب، بل سمع منه وعلّق على كلامه. بهذا يتحقق المعنى الذي سبق شرحه عن علاقة التواضع بين الراعي ورعيته، القائد والمكلف بهم، كيف يحدثهم، ويعاملهم، ويلين بين يديهم مداراة وتحبباً، وليس موقفه هذا منافٍ لما كان عليه في حياته رضوان الله عليه، بل كان - وهو القوي بالحق- ليّناً في تعامله، متودداً لرعيته فالكل يعلم عن حاله مع المرأة والصِّبْيَة الذين جاءوا عندها، وكلهم يدرك موقفه يوم فتح بيت المقدس وتسلّم مفاتحها، وهو موقف عِزّة و شموخ، جاء على بغلته يجرها وغلامُه عليها راكب، والموقف التاريخي الذي سطره الشعر العربي المتمثل بالبُردة ورسول كِسرى حين قال الشاعر حافظ إبراهيم عن تواضع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

وَرَاع صـــاحب كسرى أن رأى عمرا

بين الرّعيّة عطـــــلاً و هو راعيها

وعــهده بملـــوك الفـــرس أن لها

سوراً من الجند والأحراس يحميها

رآه مستغرقـــــــــاً في نومه فرأى

فيه الجـــلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظلّ الدّوح مشتملا

ببردةٍ كـــاد طـــولُ العهد يُبليها

فهان في عينه ما كـــــان يكبره

من الأكـــــاسر والدنيا بأيديها

وقـــــال قولةَ حقٍ أصبحت مثلا

وأصبح الجيل بعد الجيل يرويهـــا

أمنت لمـــــا أقمت العدل بينهم

فنمت نوم قرير العين هانيهـــا

ومن شمول الحديث عن التواضع أن يُذكّر به قول الإمام ابن القيم، حين أجزل في وصف التواضع فقال فيه:

«التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله، وتعظيمه، ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله

خلق هو (التواضع)، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقّاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلُق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبُّه، ويكرمه، ويقربه .[1]

هكذا كان الخليفة عمر بن الخطاب، كانت سيرته -رضوان الله عليه- تتمثل بالقائد الذي اكتمل وصفه بالهيبة، وتعامله بالصدق، وخُلُقه بالتواضع، واجتهاده بالعمل، فلما اكتمل بهذا حاله وزان الإيمان قلبه فرّق الله به بين الحق والباطل وصار مدرسة في الإيمان والقيادة والقدوة، رضوان الله عليه.

ممارسة التواضع وتنميته.

الله هو المنعم، المتفضل، الخالق، صاحب الكرم فإن الذي يكون الإنسان عليه من الخير لا يأتي إلا من موجد الخير جل في علاه، فلا فضل للإنسان لولا فضل الله عليه، ولا طاقة له على الخير لولا توفيق الله له وكرمه، فكيف يتكبر العاقل بأمر لا يمتلك فضل حيازته؟! هذا الفهم للأسباب يجعل الإنسان متأدباً بالتواضع، فلا يُكثر من نسب الإنجاز لذاته، ولا يطيل الزهو بصفاته وميزاته، ولا

١. «كتاب الروح (ص: ٣٣٢).

يمجّد الشخوص والرموز، وبفهمه لأساس الفضل يغلق أسباب التكبر ويفتح باب التواضع.ولعل الإنسان إذا أدرك قيمة بعض الأفعال، استثمر فضلها لتنمية تواضعه وتهذيب نفسه به، ومن ذلك:

١. التفكر في خلق الإنسان.

المقارنة العاقلة في خلق الإنسان وأساسه يجعل المرء مدركاً أن لا قيمة للكبر، فالإنسان خلق من تراب، ووضع في فعله الخطأ والصواب، وجعل في الكون صغيراً أمام عظيم خلق الله ودقة تفاصيل إبداعه.

٢. العلم والتّعلًّم.

يدرك العالم قيمة نفسه، ويستوعب كلما ازداد علماً كمية ما يجهل، فالإنسان كلما طرق باب للعلم فتح له عالم وكون كان به جاهلاً، ولذلك يكون العلم الحقيقي هو باب من أبواب التواضع لأن الإنسان يدرك بالعلم قيمة ما هو فيه، وكمية ما لا يمتلك.

٣. استشعر فضل من حولك.

لكل مخلوق حولك، سواء كان إنسان أو غير ذلك فضل عظيم على سر تواجدك، فهو لا شك يتشارك في تكوين البيئة التي

صممت لتستوعب تواجدك وتعتني بشخصك. اعرف فضل كل من حولك تدرك قيمتهم وتترفع عن التكبر عليهم!

٤. لا تتفكر بفضلك على الآخر.

إن مطاولة التفكر والتمحيص في فضلك على من حولك، تضخم بها دورك، وتستحقر بها أسباب خيرك، وتدفع نفسك على الكبر. ضع لنفسك شعاراً: (إن الجبال من الحصى!)

بهذا الشّعار أَدّب نفسك بصدق، أن لا ترى سبباً للتكبر فإن كل الفضل له مسبب صغير وكبير.

٥. وأنت أيضاً تفشل.

يقول الناس : «كفى بالفشل معلمًا ومؤدباً»، أنت معرّض للفشل والإخفاق فلا تتكّبّر، تفكّر بذلك وتعلم منه في لحظات زَهْوِك، فكم من صاحب زهوٍ وقع في مشيته، أو أدمت مقلته بعوضة!

٦. لا بأس أن تطلب المعونة.

في هذه الحياة، وُجِدنا لنتعاون ونتشارك فليس ما يجعل أحداً من الناس متكامل القدرات يعيش لوحده، تعلم أن لا تثقل على نفسك ما لا تطيق ولا تتقن، بل اجعلها تطلب المعونة متواضعة وعاقلة!

وتشتاق النفس إلى الفاروق وحياته فنذكر من مواقفه الكبرى وثناء كبار الصحابة عليه، فقد وجد علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- وهو في المدينة، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه- وهو يومئذٍ خليفة المسلمين يعدو إلى ظاهر المدينة. فقال له: إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: قد ندَّ بعير من إبل الصدقة، فأنا أطلبه. فقال: قد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين. [1]

رحم الله فاروق هذه الأمة ، ورزق الأمة بأحفاد له بالخلق والإيمان والإنجاز .

---

١. كتاب البداية والنهاية لابن كثير (الجزء السابع).

الرّفق رفق عثمان !

بطاقة الصّحابي

اسمه : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف يجتمع مع النّبي ﷺ

في عبد مناف.

ولادته : وُلد في عام ٧٧٥ للميلاد ، الموافق لـ ٧٤ قبل الهجرة .

شُهرته : ثالث الخلفاء الرّاشدين، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السّابقين الأولين للإسلام، بالإضافة لأنه عرف بالرجل الذي تستحي منه الملائكة.

كُنيته : أبو عبد الله، ذو النورين .وقد لُقِّب بذلك لأنّه تزوّج اثنتين من بنات النّبي ﷺ: رقية ثم بعد وفاتها تزوّج من أم كلثوم «رضي الله عنهما وأرضاهما» .

وفاته : استشهد رضوان الله عليه سنة ٥٣ للهجرة .



عُرف عن عثمان - رضوان الله عليه - أنّه كان من أغنياء الصّحابة، فهو الذّي اشترى بئر رومة من اليهود بعشرين ألف درهم، وجعله وقفًا للمسلمين، فنمت من حول البئر النخيل ودبّت الحياة حتى صار جنّة، أسّس بعدها "وقف عثمان بن عفان" الوقف الذّي يزدهر ويكبر وتقام بسببه المشاريع الخيريّة إلى يومنا هذا ، وهو الذّي جهّز ما جهّز يوم جيش العسرة في معركة تبوك فجاء بألف دينار[١] ، وجهّز الجيش بثلاثمائة بعير .[٢]

كان اللّيل

إذا جنّ على بيت عثمان بن عفان وهو داخل مدينة رسول الله ﷺ، قام يحييه بالتقرب إلى الله ﷻ، ومن عادته -رضوان الله عليه- تجهيزه ماء وضوءه بنفسه، وهو يومئذ أمير المؤمنين، وقائد دولتهم . فقيل له : «يا أمير المؤمنين لو أمرت الخادم فيكفيك إيّاه» أجاب عثمان : لا، اللّيل لهم يستريحون فيه.[٣]

١. (من حديث عبد الرحمن بن سمرة)
٢. (من حديث عبد الرحمن بن حباب السلمي في سنن أحمد و الترمذي)
٣. كتاب تاريخ مدينة دمشق - ج ٣٩

لا عجب أبدًا أن يكون هذا الخُلُق نابعًا من الرّجل الذّي تستحي منه الملائكة، ويستحي منه رسول الله ﷺ ؛ لا عجب أن يكون رجلٌ بهذا الخلق العظيم والأدب الجمّ رفيقًا بمن يخدمه، متأدبًا معهم، لينًا في حاجته إليهم، ومدركًا أن من يخدمه له عليه حقٌّ ، فأوقات الرّاحة تعطى كاملةً لأنّه يعلم أنّه كما من حق السّيد على خادمه في وقت عمله مطالبته بتمام أمره، فإنّ من حق الخادم على سيده استمتاعه بوقت راحته كاملاً، بلا تنغيص ولا نفس من التمنّن، لذلك كان عثمان بخُدّامه رفيقًا، كيف لا ؟ وقد عُرِف بالرّفق وتعامل به.

إذن ما هو الرّفق ؟

الرّفق لغةً : الرِّفق ضد العنْف، وهو لين الجانب، ويقال: رَفَق بالأَمر وله وعليه يَرْفُق رِفْقًا ،ومرفقًا: لأنّ له جانبا هو حسن صنيعه. ورَفُقَ يَرْفُقُ ورَفِقَ لطف ورفَقَ بالرجل وأَرْفَقه بمعنى وكذلك تَرفَّق به[١].

أمّا عن الرِّفق اصطلاحًا : قال ابن حجر في تعريف الرِّفق: «هو لين الجانب بالقول، والفعل، والأخذ بالأسهل،وهو ضد العنف»[٢]

١. النهاية لابن الأثير (٢٤٦/٢) ، لسان العرب لابن منظور (١١٨/١٠)،المعجم الوسيط (٣٦٢/١).
٢. فتح الباري لابن حجر (٤٤٩/١٠).

وقيل أيضًا في معناه هو المداراة مع الرفقاء، ولين الجانب، واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه، وأيسرها[1]

إذن هو الرفق ، ذاك الذّي دفع عثمان ليفكّر بمن هم عنده، بحقوقهم، وبكيفية التعامل معهم.

إنّ الإنسان حين يكتمل خلقه، ينضج عقله، ويصح فعله، ولو كان للخُلُق أسيادٌ ، لساد من الأخلاق الرفق لما له من فروع وأصول، ولما به من نتاج وحصاد، فما كان الرّفق في شيء إلاّ زانه، وما انتزِع من أمر أو سلب منه إلا خرب بالشّدة البغيضة - وفي الشدة نفع في مواضعها - وانعكس الأمر إلى ما يشين الحال ويرديه ؛ ويكون الرفق على أوجه عدة، فالرفق صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، ارتضاها لنفسه، وإن كان المخلوق طامعًا في رفق الله به، فهو من باب أولى له أن يرفق بحاله، ويرفق بأقرانه وأهل بيته، وأن لا ينتزع الرفق من تعامله مع من هم دونه من الحيوانات وغيرها .

رفق الله بنا .

ويعلم أصحاب الشّريعة المحمدية، بما هو معروف عندنا بالضّرورة أنّ الله تعالى رفيق بنا، ويحب الرّفق في الأمر كلّه ودليل ذلك النّص الصّحيح في قوله ﷺ :« إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي

١. مرقاة المفاتيح للقاري (٣١٧٠/٨) .

الأمْر كُلِّهِ»[1]وعليه يبنى الأصل في أنّ الشريعة مبنية على الرفق، فما يكون فيها من عمل إلاّ وقد وضع على أساس الرفق، فالعبادة من العبد رفق بحاله، وتهذيب لأفعاله، وتدريب له على ما يحتاج من تسيير لأموره - سواء أصاب الفهم في ذلك أم منعه - وحتى في العقوبات والجزاء، فإنّ الرّفق أساس العقوبة . هب أنّ القاتل أو الثّيب الزّاني، قد تُرِكٍ لينجو بفعلته - من باب الرحمة به - فأين هي الرحمة والرفق بقلوب الذّين جُنِي عليهم بلا ذنب منه ولا فعل؟ فالحق أحقّ أن يتبّع، والرّفق بمن ظُلِم خير من الرّفق بمن اعتدى وأسرف، فإنْ كان الله غفورًا رحيمًا، يقبل التّوبة عن عباده، فإن العبد إذا ما أوذي وتعرض لما يسووءه فإن الرّفق به أن يعطى حقه ويشفى غليله ممن اعتدى عليه وآذاه؛ فالرّفق من الرّفيق جلّ في علاه، هو الرفق الكامل، لأنّه رفق من صاحب الشّريعة الذّي خلق العدل وجعله عنده عدلاً مطلقاً ممزوجاً بالرفق في الأمر كله.

ولابن القيم في هذا المقام كلام جزل في لفظه، شامل في معناه، فهو يقول : "من رَفَق بعبادِ الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره،

---

١. أخرجه البخاري (٢٥٣٩/٦،رقم ٦٥٢٨)، ومسلم (١٧٠٦/٤،رقم ٢١٦٥)

ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله بتلك الصِّفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه "[1]

ارفق بنفسك.

إنّ العبد مأمور بما كان عليه خالقه، فلما كان الله رفيقاً بعباده، وجب على العبد أن يجعل الرّفق في أمره كله، فيكون الإنسان رفيقًا في الابتداء مع نفسه، حريًّا به أن يفهم ما ترغبه وما تطيقه، ويبتعد عمّا يدنسها وما يقلل من قيمتها . فالعلم أساس رفعة الإنسان، لأنه يهذب مبادئه، ويثري دواخله، ويثبت قلبه على ما ثبت في عقله من العلم، فيكون الرّفيق بنفسه متعلمًا، مهتمًا بالعلم راغبًا به وطالباً له. والمتعلم يدرك أنّ الرّفق بالنفس في الخلوات يكون أحوط للنّفس وأنفع لها، فيكون بنفسه رفيقًا إذا اختلى بها، يشجعها على ما تتردد به، يؤنبها على ما أخطأت به، يُحصي عليها قبل أن يُحصَى عليها، إن وجد منها خيرًا علمها التّواضع، وجعل من طبيعتها ردّ الفضل إلى صاحب الفضل، وإن وجد منها التّراخي شدّ من عزمها بما تحب وترغب، ويكون مع نفسه في كل حالها صادقًا، يداري احتياجات النّفس - بما هو مباح - فإن لنفسك عليك حقًا؛ حقٌّ ما رعيته وصنته حتّى ملكت نفسك وأحسنت لدينك وصنت جسدك .

---

١. كتاب الوابل الصيّب لابن القيم

وهنا في القصة مع الخليفة عثمان بن عفان رضوان الله عليه وقفة أخرى، فقد كان عثمان رغم الخلافة ومشاغلها رفيقًا بنفسه قبل كل شيء، فتجده يقتنص الليل وخلوته، ليهذب النفس بالصلاة والخشوع، ويطره الفؤاد من متاع الدنيا إلى الخلوة برب الأمر كله. فهو ما يفعل هذا إلا رفقًا بالنفس التي تتعبها وتضنيها متاعب المسؤولية وأثقال الحكم .

والرّفق بالنّفس لا يكتفي بأن يكون في الجانب الرّوحانيِّ منها - وهو مهم لأنّه الجوهر - بل يتعدى ذلك، فعليك أن تكون رفيقًا بنفسك في تدريبها، وتعليمها، وحتى في الاهتمام بمظهرك العام؛ فالنّفس توّاقة لما هو مثاليٌّ وجميل، فإن أنت أخذت اهتمامك بذاتك وعنايتك بلياقتك وأناقة ثيابك، والاهتمام بطيب عطرك وحسن منطقك، وغير ذلك من الأمور الظاهرية الكثيرة مأخذ الرفق بالنفس، وجعلتها في ميزان أنّ الله يحب الرّفق في الأمر كلّه؛ صار اهتمامك بذاتك وتطويرك لمظهرها الخارجيّ أجرًا في ميزانك ما دمت به صادقًا، فكيف إن أنت جعلت الاهتمام في الجوهر نقطة الابتداء؟ ، فاعتنيت بروحك، وجعلت من أهدافك قوة إيمانك بربك، وفهمك للرفق في أحكامه، وتطبيقك لأوامره، وأخذ العلم

وتعلمه والتفقه به، وكل ما يخصّ جوهر الإنسان من باب الرفق؛ كل ذلك من نتاج رفقك بنفسك .. فارفق بها عمرًا ودهرًا !

مواطن الرّفق مع النّاس.

لا يخلو خلق المربي من الرّفق، ولا ينزع الرّفق من قلب القاضي، ولا تنتشر الشّدة في مكان إلاّ زالت منه الرّحمة، وتوسعت فيه دوائر العسر، وصار الأمر فيه قسرًا. إنّ من الخير أن يكون الإنسان بأقرانه رفيقًا، لأنّ الرّفق " آفة حسنة " ما تعامل بها شخص إلاّ أورثها لمن هو حوله من الأخيار، فصارت خلقًا عامًا تعمر به البلاد ويصلح به حال العباد . فإن كان الحاكم بشعبه رفيقًا، وأدرك مخارج الرّفق في أحكام الله وتطبيقاته، انتقل فهمه للنّصوص والأحكام إلى من يحكمهم، فصار تطبيق القانون عند النّاس محبة وقربة، بدل أن يكون طاعةً وامتثالاً، وصار التزام الأحكام والقوانين مطلبًا لأنّ كل قانون كتب بما يرضي الله، فإنّ في جوانبه رفقا، وفي أصله رفقا، وفي تطبيقه رفقا.

والقاضي في نفس الكفة، إنْ هو كان رفيقًا بين من يقضي بينهم فأنزلهم منازلهم، وسمع منهم بالرّفق والحكمة، كان قضاؤه بين الناس تعليما وتفقيهًا لشؤون حياتهم. ويلحق بذلك المعلّم في

فصله الدِّراسي، والوالد بين أولاده مربيًا وحبيبًا، والرّجل مع زوجته حنونًا وعطوفًا، وبين الأقران في كل مهمة أو عمل يسند إليهم، فإن هم رفقوا ببعضهم عمّ الخير الجماعة، وإن هم قتروا على أنفسهم تأذى الجميع، بجمعهم وانفرادهم.

بهذا الفهم، ومن هذا المنطق سار خلق عثمان في أهل بيته، وتعامل مع الذّين جعلهم الله بين يديه في خدمته، إذْ فهم الصّحابي الجليل عثمان بن عفان أنّ المانح للحق ليس بأقل حاجة لحقوقه من الذّين يعطيهم، فهو وإن كان بين يديه حال خُدّامه، فإنه عبد لله، مُؤتمِرٌ بأمره، فمتى أعطى النّاس حقهم من الرّفق والتّيسير، استحق الرّفق والتّيسير من ربّه المتفضّل علينا ابتداءً . إنّ عثمان قد فهم أنّه يتبع شريعة أساسها الرفق، جاء فيها الرفق في كل جوانبها، فاهتم الرفق بالدّين وتعاليمه، والإنسان واحتياجاته، والمجتمع وخصائصه، والحياة ومتعلقاتها، فلما أدرك ذلك كلّه، جعل التّقرب من المشرّع بأن يتعامل بما شرعه له، حينها استحق أن يخلد موقفه الذّي دار في بيته، فلا القمر ينقل لنا ما حدث، ولا الجدران تخبر عن أسرار بيت عثمان، ولكنه الحق.. يغلب على كل حال ويظهر على كل شيء فيعمّ وينتفع صاحبه في دنياه وآخرته.

الرّفق مع الحيوان.

وتحت هذا الرّكن، نضع حديثًا يحفظه الجميع، لم يغب عن أحد علمًا وجهلاً والحديث يرويه الطّاهر الكريم أبو هريرة مرفوعاً: « بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ» (١) وفي هذا الحديث يحدث العاقل عقله، ويستدعي فهمه وحكمته، فإنّ الشّريعة التّي جاءت لتغفر للبغي التي أساءت مع نفسها، ولم تطبّق تعاليم ربّها، ولكنّها مع حسن نيتها وطيبة فعلها، رفقت بمخلوق من مخلوقات الله، فكان حقًا على الله أن يرفق بمن أحسن النّية وأتبعه بالعمل، فكيف لهذه الشريعة أن يكون في جانب آخر منها وحشية أو عنف؟ إنّ هذا لا يكون في أي حال من الأحوال، ولكنّه الفهم والإدراك، يمنحُ للإنسان كما الرزق في جانب وقد يُحرَم منه في جوانب أخرى، لا يمنعه فيها لانعدام أو قلة - للخير في الأمر - وإنّما لجهل أو غير ذلك - في ذات الشخص - .

يقول العلاّمة أبو حاتم الرازي : « الواجب على العاقل لزوم الرِّفق في الأمور كلها، وترك العجلة والخفَّة فيها، إذ الله تعالى يحب

١. في الصحيحين .

الرِّفق في الأمور كلها، ومن منع الرِّفق منع الخير، كما أنَّ من أعطي الرِّفق أعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يحب، إلا بمقارنة الرِّفق ومفارقة العجلة " ويكمل التفصيل على ذلك بقوله : « العاقل يلزم الرِّفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛ لأنَّ الزيادة على المقدار في المبتغى عيبٌ، كما أنَّ النّقصان في ما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرِّفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق، كما لا ظهير أوثق من العقل، ومن الرِّفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز ترجى السلامة، وفي ترك الرِّفق يكون الخرق، وفي لزوم الخرق تخاف الهلكة »[1] "

التّطبيق العملي للرّفق.

إنّ البيئة التّي تحيط بالإنسان تتأثّر به تمامًا كما يتأثر بها، فيكون للرّفق في تعامل الإنسان مع محيطه وقع لا يستهان به مطلقًا، ومتى كان الإنسان قادرًا على امتصاص "رعونة" تصرفات من يتصرفون بلا تفكير، وتحويلها إلى طاقة من الصّفح والتّفكير الإيجابي، استطاع وقتها أن يترجم خلق الرّفق في تعامله ويكون ذلك من خلال

١. كتاب روضة الحبّان لابن حبّان ص٢١٥ .

فهمه لظروف الناس ومحاولة إدراك الأبعاد الحقيقية التّي تتسبّب بتصرفاتهم التّي تصدر منهم، بل واحترام الآراء المختلفة من الناس يجعلك قادرًا على فهم مقاصدهم وبالتالي الرّفق بهم في تعاملك وفي كل فعلك سواءً كنت معلمًا أو ناقدًا أو حاكمًا. اجعل قولَ سفيان الثوري شعارًا لك :« أن تضع الأمور مواضعها، الشدة في موضعها، واللين في موضعه،والسيف في موضعه، والسوط في موضعه . » التزم به شعارًا فهو كفيل بأن يجعلك لا تكلّف ظرفًا ولا شخصًا أكثر مما يحتمل.

ودومًا يبقى التّدريب للنّفس بابا لتمكينها من أدوات تفعيل الخلق، ولك أن تفعّل الرفق في نفسك بأن تلزمها دواما على التالي:

١. **التّطوع .**

إنّ مخالطة المساكين وأهل الفاقة والاحتياج يجعل الإنسان خاضعًا لاحتياجاتهم، مستشعرًا لما بمقدوره أن يجعل حياة الآخرين أكثر راحة ويسرًا، وبالتالي تنطلق إنسانيته في محاولة الرفق بحالهم وأشخصاهم.

٢. عود نفسك أن تحسن.

الحقد هو من ضغائن القلوب التّي تدفع الإنسان إلى الإساءة في تصرفه وأحكامه، فإذا ما عوّد الإنسان نفسه على أن تكون محسنةً للآخر، صارت به رفيقة ! فيكون رفيقًا بمن حوله مخطئًا كان أو صاحب فضل، لأنّ النّفس التّي اعتادت على الإحسان في كل حالها تأبى على نفسها أن تكلِّف الآخر عناءً أو تدفعه إلى مهلكة.

٣. افهم حاجة الإنسان لغيره.

إنّ الإنسان متى أدرك أنه محتاج لغيره، عرف معنى الرّفق، فالمرء في يومه يحتاج إلى غيره كما يحتاح الغير إلى آخر، فمن كان رفيقًا بالناس، أنزل الله في قلوب العالمين به رفقًا ولينًا، وإنّ تعامل الآخرين معك غالبًا يكون مرآة تعكس تعاملك مع الآخرين.

٤. رعاية الحيوانات الأليفة.

لعلّ أولئك الأشخاص الذّين يشرفون على رعاية الحيوانات الأليفة، والاهتمام بها بشكل مباشر، يترك هذا في خلقهم رفقًا بالآخر، فيصبح الأمر عندهم عادة وخلقًا.

٥. ازرع وردة.

تبقى الأزهار من المزروعات شديدة الحساسية لظروف ومتقلبات الطقس، ويبقى للجمال الذّي تضفيه على المكان حين تزهر وقع في قلب صاحبها فيتعلم العناية بها ومداراة ظروف ظهورها، تلك المداراة تزرع في القلب الرّفق والعناية.

ونعود لسيد من سادات الرّفق وأهله الأبرار ومع أعظم مواقف صاحب الرّفق عثمان بن عفان، يومَ استشهاده - رضوان الله عليه-، حين اجتمع عليه قتلة أهل الأرض وفسقتهم، وهو الذّي كان محافظًا على وصية رسول الله ﷺ له حين قال : « إِنَّ اللَّهَ مُلْبِسُك قَمِيصًا تُرِيدُكَ أُمَّتِي عَلَى خَلْعِهِ فَلا تَخْلَعْهُ» [1]فلما صاروا على بابه وبعث الصّحابة أبناءهم للدّفاع عنه فبعث إليه علي بن أبي طالب بالحسن والحسين وجاء معهم عبدالله بن الزّبير وعبدالله بن عمر، وجمعٌ من الصحابة غفيرٌ يقدر بسبعمائة نفر لكنّه -رضوان الله عنه- أدرك أنّ الأمر قد قضي، وأنّ الفتنة قد وقعت وكان ذلك لرؤيا يقول عثمان عنها : " إنيّ رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، فقالوا: أفطر عندنا الليلة، أو إنّك مفطر عندنا الليلة « ولهذه الرّؤيا والمعنى

١. «الحديث ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها راوه الترمذي وصححه الألباني.

الذّي هو واضح فيها، وحفظًا للدّماء جميعها وحرصًا على صحابة رسول الله ﷺ ردّ عثمان الصّحابة من حوله و قال لهم « أقسم على من لي عليه حق أن يكفّ يده وأن ينطلق إلى منزله، وعنده من أعيان الصّحابة وأبنائهم جمع غفير ".[1]

وما هو إلا وقت قليل مضى، حتى حرق أهل الفتنة بيت عثمان، ولعبوا بلحيته الطاهرة، ثم شنعوا فيه وقطعوا يده، فلما ضرب عدو الله كنانة بن بشر يده قال عثمان : " إنها أول يد كتبت كتاب الله" ثم ما لبثوا أن أشبعوه طعناً ، وقيل أن كنانة طعنه بالسيف ثم داس على جسده حتى اخترق السيف جسد عثمان ولما كان قاتله اعترضته زوجة عثمان بن عفان نائلة رضي الله عنها فضربها فقالت لضاربها " قطع الله يديك ورجليك وأدخلك النار " ويذكر التاريخ أن هذا الرجل شوهد في سنين بعدها في البصرة وقد قطع الله يديه ورجليه ويردد يا ويلاه من النار !

ثم انقض على عثمان من الخوارج عمرو بن الحمق وطعنه تسع طعنات، وبعدها انتشر خراب الخوارج في المدينة، وسرقوا بيت عثمان كلّه، وهمّوا بقطع رأسه، ثم ما لبثوا أن أخرجوا من السجن

---

١. كتاب البداية والنهاية لابن كثير- الجزءالسابع.

عمير بن ضابي، وهو الذي كان قد حاول مسبقاً قتل عثمان فلما نجّى الله عثمان حبسه، فانطلق إلى دار عثمان وأمير المؤمنين قد استشهد في داره، فاعتلى صدره و كسر ضلعيه وهو الذي أنشد:

هممت و لم أفعل وكدت وليتني   تركت على عثمان تبكي حلائل

ويذكر التاريخ أنّ دماء عثمان بن عفان سقطت على المصحف الذي كان قد جلس يتلو القرآن منه في موقفه ذاك في منزله، فوقعت قطرات الدم على قول الله {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ}[1] ، فلم يفت القتل أحدًا دخل دار عثمان قاتلًا ومهددًا إنّما قتلوا جميعًا، حتّى قيل أنّ آخرهم كان الذّي كسر أضلع عثمان، فقد ضرب الحجاج بن يوسف الثقفي عنقه حين دخل العراق.

والشّاهد أنّ هذا الموقف الجلل، وهذه الفتنة العظيمة، حاصرته وحاولت أن تنال منه، واستفزه أهل الباطل أيّما استفزاز، وهو الشيخ الكبير الذي يخجل منه الحياء، وتستحي منه الملائكة، ولكنّه ثبت رضي الله عنه بل وكان في مقتله محافظًا على صحابة رسول الله وعلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا هم الصّحب الأول، رضوان الله عليهم.

---

١. [البقرة:١٣٧]

عليّ وحياء الرجال .

بطاقة الصحابي :

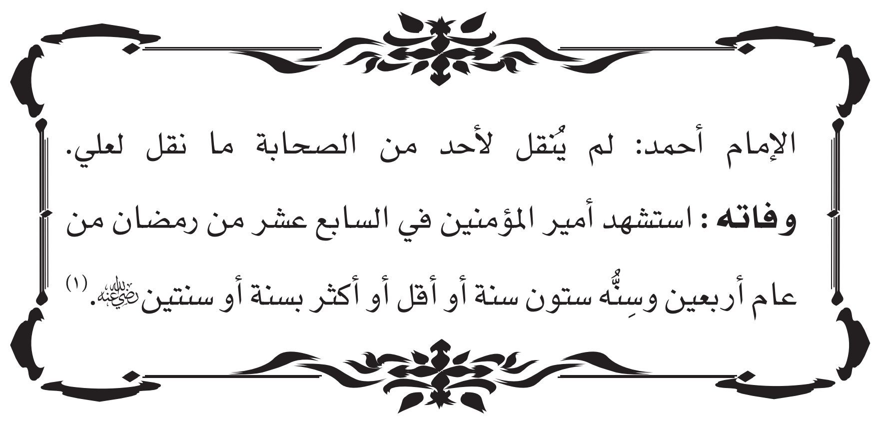
اسمه : هو أبو الحسن الهاشمي علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم .

ولادته : وُلد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح

لقب ب : أمير المؤمنين ، والد السبطين ، حيدرة

اشتهر به : هو أول مولود هاشمي لأم وأب من بني هاشم، كان ممن سبق إلى الإسلام، وصاهر المصطفى ﷺ، وجاهد في الله حق جهاده، وصار من فرسان الإسلام، نهض بأعباء العلم والعمل، وكان اللواء بيده في أكثر المشاهد، وشهد له النبيﷺ بالجنة، وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه"[1] وقال: (لا يحبُّك إلا مؤمنٌ ولا يبغضك إلا منافق)[2]ولم يزل بعد النبي ﷺ متصديًا لنشر العلم والفُتيا، وكان أحدُ أصحاب الشورى الذين نص عليهم عمر. ومناقبه كثيرة حتى قال

١. رواه الترمذي وابن ماجه،
٢. رواه الترمذي والنسائي،



الإمام أحمد: لم يُنقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلي.

وفاته : استشهد أمير المؤمنين في السابع عشر من رمضان من عام أربعين وسِنُّه ستون سنة أو أقل أو أكثر بسنة أو سنتين رضي الله عنه.[1]

لقد خرج المسلمون

إلى غزوة أحد ، بعد أن استشارهم النبي ﷺ، بين البقاء في المدينة المنورة والقتال فيها فيكون لهم أفضلية الدفاع، أو الخروج إلى المشركين ومقاتلتهم عند جبل أحد، فأشار الناس على نبينا ﷺ

---

١. وقد أطلقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه على نفسه، وذلك لما خرج مرحب اليهودي يوم خيبر يرتجز يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شـــاكي السلاح بطل مجرب.

إذا الحروب أقبلت تلهب

فقال علي رضي الله عنه:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره.

أوفيهم بالصاع كيل السندره. "رواه مسلم".

وفي لسان العرب: أنه أراد بقوله (أنا الذي سمتني أمي الحيدرة) أنا الذي سمتني أمي أسداً، فلم يمكنه ذكر الأسد لأجل القافية فعبر بحيدرة، لأن أمه لم تسمه حيدرة وإنما سمته أسداً باسم أبيها لأنها فاطمة بنت أسد وكان أبو طالب غائباً حين ولدته وسمته أسداً فلما قدم كره أسداً وسماه علياً فلما رجز علي هذا الرجز يوم خيبر سمى نفسه بما سمته به أمه. انتهى.

بالخروج، وحرص على ذلك كل من غاب عن غزوة بدر الكبرى، فلبس المسلمون لباس الحرب، وخرجوا إلى المشركين يوم أحد ، يقاتلون لإعلاء كلمة الله، وبقاء رسالته وشريعته التي ارتضاها للناس ، وكان من بين الذين خرجوا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وهو الشجاع القوي، معروف عنه بسالته، ومشهور قتاله وبراعته . فلما تقابل الطرفان، خرج من المشركين رجل يقال له أبو سعد بن أبي طلحة ، وأخذ ينادي عليًا ليبارزه، فانبرى له عليّ وهو الذي كان قد بارز يوم بدر «شيبة بن عتبية» وأرداه قتيلاً وهو من سادة قريش .

فلما تلاقى الطرفان ، واشتدت المبارزة بينهما وحمى وطيس القتال، فتبادر كل واحد منهم يضرب صاحبه ، فعجل علي إلى أبي سعد فضربه ضربة طرحته أرضًا ، وأخذ علي يتهيأ ليجهز عليه وينزله قتيلاً فإذا بعورة أبي سعد تنكشف بعد انحسار جلبابه !

لم يغر القتل عليًا، ولم تنسه حرارة المعركة شيم الرجال ومكارم أخلاقهم، لكنه تربى على الخلق فصار عنده طبيعة ،

ولذاك لما انكشف أبو سعد، وظهرت عورته أغمض عليًا عينيه ، وغض بصره عن عورة الرجل وجسده، بل وأغمد سيفه وتركه عائدًا إلى مكانه في صفوف المسلمين ![1]

لقد منع حياء علي بن أبي طالب عليّاً من خصمه ، واختار عليّ مكارم الأخلاق على قتل من بارزه وحاول قتله، لأن الرجال تدرك أن الرجولة في معاني الخلق وحسن التصرف، وأن المرء لا يرفع قدره بسفك الدماء أو جسارة الأفعال، إنما هو الخلق ميزان الرجولة و تاج إنسانية الإنسان .

غض البصر لغة

غض البصر في اللغة يعني كفّه ومنعه من الاسترسال في التأمل والنظر . يقول ابن فارس في [2]

١. قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "قال ابن هشام: وحدثني مسلمة بن علقمة المازني، قال: لما اشتد القتال يوم أحد جلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحت راية الأنصار, وأرسل علي أن قدم الراية، فقدم علي وهو يقول: أنا أبو القُصَم فناداه أبو سعد بن أبي طلحة، وهو صاحب لواء المشركين.

هل لك يا أبا القُصَم في البراز من حاجة؟ قال: نعم, فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين، فضربه علي فصرعه، ثم انصرف ولم يجهز عليه.

فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله.

وقد فعل ذلك.

علي ﷺ يوم صفين مع بسر بن أبي أرطأة لما حمل عليه ليقتله أبدى له عورته؛ فرجع عنه".

اهـ "البداية والنهاية" (٢٢/٤). وذكر هذه القصة غير واحد من المؤرخين

٢. "معجم مقاييس اللغة" (٣٠٧/٤)

أما اصطلاحًا فمعنى غض البصر أن يغمض المسلم بصره عما حرّم عليه، ولا ينظر إلّا لما أبيح له النّظر إليه، ويدخل فيه أيضا إغماض الأبصار عن المحارم، فإن اتّفق أن وقع البصر على محرّم من غير قصد فليصرف بصره سريعا .

من هذا التعريف الاصطلاحي ، نخرج بمفهوم كبير ، يجعل العمل على غض البصر ،عملية شاملة متكاملة لا تتوقف عند حدود عدم النظر إلى ما لا يباح لك ، بل يتعدى ذلك بمراحل، فعملية الصدق مع الذات ، وعملية التحكم بما تريد وبما تستطيع، وإقناع النفس وتعويدها وتدريبها على ما يجب ، وإنشاء علاقة حرمان بينك وبين نفسك على ما لا يجب لها ، وكل ذلك يمر تحت سقف ما يعرف بالمحاسبة الآنية والدائمة للنفس .. أمور عديدة ، وعناصر مهمة ، إذا ما اجتمعت صار من السهل اليسير على العين أن ترد نظرتها عن ما لا يجب النظر إليه .

إذاً هي عملية معقدة التفاصيل ، شائكة في تفرعاتها ، لكنها متى أقيمت على أساس واعٍ وأرضية صلبة صار تنفيذها من الطبع الغالب على الإنسان ، فالعمل دومًا على طاعة الله ، وبنية التقرب إلى الله بما أمر والابتعاد والانحياز عن ما نهى عنه لا يكون فقط بالمحاولة والفشل والتوبة - رغم عظمة ذلك - ولكن عليًا - كرم الله

وجهه – والصحابة من حوله ، فهموا أن قضية التحليل والتحريم لم تأتِ من باب الامتحان والاختبار ، فالله -جل في علاه- لم يفرضها ويضعها لتكون الاختبار والامتحان ، ولم تكن هذه الواجبات فقط على سبيل التصعيب إنما جاءت تحت غطاء من الفهم لواقع الحال، والإدراك الكامل لما يصلح الأركان وتقوم عليه الحياة بشكل عام. فليس الموجد للشيء كالمتفاعل معه، فإن المتفاعل مع الشيء لا يرى إلا في حدود تفاعله ، في حين تتسع رؤية الموجد لتشمل كل طرف وتحسب كل زاوية ، حسابًا دقيقًا موجدًا لما يجعل جسد الحياة متعافياً وسليماً .

من هنا نضع لغض البصر عناصر أساسية، أو لنسميها أركان غض البصر، وهي :

١. فهم التكليف .

٢. القدرة على التحكم بالنفس فيما ترغب .

٣. تعويد النفس على الامتناع عن ما لا يجب .

٤. المحاولة المتكررة .

٥. المراقبة الآنية الدائمة .

تلك الأركان الخمسة، حين تأتي مجتمعة في قلب الإنسان، يستطيع الإنسان من خلالها إسقاط الأوامر والواجبات على محلها

الصحيح، فمتى وضع البناء على قواعد سليمة، كتب للبناء أن يعمر ويدوم، فيسعد به ساكنه - القلب - ومستعمله - الجسد -، وإذا ما جاء التقصير في القواعد الأساسية، صار البناء يؤول للوقوع في كل حين، وسرعان ما ستطاله يد الخراب .

أولًا : فهم التكليف .

إن غض البصر ما جاء لحرمان الإنسان من متعته التي وضعت فيه ، إنما جاء لتنظيم الملذات مع الطبائع ، فمن طبيعة الإنسان أنه إذا أحب غار على ما يحب ، وإذا أمسك أحب التملك ، وإذا ما تشارك فيما يحب تأثر قلبه وانشغل عقله .

فالتمتع في قلب الإنسان وضع لأسباب عديدة ، لعل من أهمها جعل عملية الإدامة في استخلاف الأرض عملية محببة ، لا إكراه فيها ولا مشقة مقيتة .

وإن تلك العملية متى كانت محببة و تنزل منزل المتعة والراحة، فإنها ستكون بوابة من أبواب الطمأنينة التي يطرقها الإنسان ليسكن إليها ويستأنس بها . فكان من باب أولى أن يحفظ الله للإنسان هذه الطمـأنينة ، ويديم عليه أمان مسكنه ، فلا يكون باب الراحة الذي يطرقه في حبه لهذه المتعة ، منزوعًا بالانشغال بالمشاركة ، والتأثر

النفسي والعقلي بالقدرة على التملك والاستقرار مع من تحب. حينها كان لزامًا على من يرغب بالاستقرار أن يضبط نفسه ، لأنه في وسط بيئة متكاملة ، يؤثر بما حوله، ويتأثر به ، فإذا هو تحكم في متعته ورغبته في الاستزادة ، حفظت له رغبته في الاستقرار والتملك، وحفظ منه التنافس على المشاركة. ولم يترك الأمر عبثًا بل صاحبه التكليف الديني، والعقوبة الرادعة لمن لا يردعه الفهم ولا يغريه الثواب العظيم .

وبالطبع، ولأن الخالق هو نفسه الموجه هو ذاته الواضع للأحكام، فقد تشكل المجتمع وفقًا لما وضعت عليه الأنفس والأجساد، ووضعت الأحكام على هذا الأساس، وضعًا يضمن البقاء مهما امتدت الأيدي المخربة في هذه الدنيا التي كانت للتمحيص والاختبار، فشاءت حكمة الخالق، أن يكون في المجتمع تناسب مع التشريع – على أن يكون التشريع عادلًا - فجاء مع حب التملك، التشريع بتعدد الزوجات للرجل، لمعرفة الخالق بأحوال المخلوقين، وبسبق درايته عن ما سيؤول إليه الحال من الخراب والفساد الذي يولد بسبب حرية الإنسان في التفكر والتصرف، فنحن لسنا أجهزة إلكترونية – روبوت – ولا نرغب أن نكون، ولعل ضعف الفهم والإدراك عند

الكثير، جعل الحروب والأعمال المنهكة التي جاءت تطابق البنية الجسمانية للذكر، قابلة لإزهاق روحه بسبب عبث العابثين و حروب المخربين، ولعلها أقل خطرًا على الأرواح من الأعمال التي تحتاج للرعاية والدقة والتي جعلت مناسبة للتكوين الجسدي والذهني والعاطفي للأنثى. ذاك التقسيم الذي وضعه الخالق الموجد، سيجعل ولا شك تفاوتاً في الأعداد، وتفوقاً بين الطرفين الذين بهما تكتمل المعادلة الإنسانية في جوانب دون أخرى، ولأن المعادلة لا تكون منضبطة إلا في هذا التنوع، وضعت هذه الأحكام والمفاهيم والتكاليف والرخص الدينية، ولعل شرحها يجعلها أكثر تعقيدًا، فهي تحتاج إلى القلب ليطمئن لفلسفتها، قلب مؤمن ومسلم، يعرف معنى الخضوع لله الذي خلق كل شيء، وأوجد كل شيء، وهو العادل فوق كل شيء في تقسيمه الذي قد لا نفهمه ولا ندركه لنقص في فهمنا وإدراكنا .

ولضرورة القول، ما طرح أعلاه من شرح وتفسير، ما هو إلا جانب واحد من فلسفة عظيمة لفسيفساء خلق المجتمع ودهاليز تكوينه.

ولعلنا نلخص ذلك هنا فنقول ، إن إيمانك بأن العدل المطلق الله قد وضع التكاليف لحماية طبيعتك ورغباتك ، هي الركن الأول

من أركان تطبيق غض البصر ، فما جاء غض البصر إلا ليحفظ لك ما جعل لك لتسكن إليه وتستقر به ، ويحفظ منك ما يستقر إليه غيرك - والحديث للجنسين على حد سواء -.

ثانيًا : القدرة على التحكم بالنفس فيما ترغب .

إن نفس الإنسان خلقت تواقة ، تريد دومًا أن تحوز على المزيد، وتطمع دائماً أن تنال ما لم تنله في سابق يومها ، ولعل هذه الطبيعة عند الإنسان هي أحد الطبائع المهمة لبقائه على مر الأزمان، ولتجعله قابلاً للتطور والنمو في ظل ظروف الزمان والمكان المحيطة به، سواء تلك الظروف التي تسببها له الكائنات والمخلوقات الأخرى من حوله ، خاصة في العصور الأولى ، أو الظروف التي تتشكل بسبب بني البشر ، وأخيرًا الظروف التي تسببها الجمادات المحيطة التي يحتاج الإنسان أن يكرسها في طريق نموه وتطوره ، كلها تلك جاءت لأن الإنسان كائن غير خامل ، بل في طبيعته تواق للمزيد .

ومن هنا جاءت التكاليف والأحكام لتضبط طلب النفس للمزيد، ورغبة الإنسان بالسيطرة أو الطمع السلبي ، ونجد ذلك جليًا في غض البصر ، فهو تدريب للنفس على التحكم فيما ترغب به ، فقد ترغب نفس الإنسان لمزيد من التمتع ، وتبحث عن الأمان في

كل جانب من حولها ، غير مكتفية بما قسم الله لها، فيكون خلق غض البصر ، من الأخلاق الرفيعة النبيلة التي تدرب الإنسان على التوقف عند ما يكفيه ، وعدم التجاوز على ما يكفي غيره .

يكون بهذا المفهوم ، غض البصر عن ما حرم الله النظر إليه لا يتوقف فقط عن غض الأبصار عن المفاتن الجنسية فحسب ، بل حتى عن ما فضل الله بعض الناس على بعض لحكمة منه ، فإنك إن علمت أن ما قُسِم لغيرك إنما جُعِل له من حكمة الله ورزقه له ، وعملت بغض البصر عن طول الإمعان في رزقه ، حبست قلبك عن الحقد والحسد، ورغّبت جسدك بالمزيد من العطاء للحصول على ما يكتب لك جراء اجتهادك وتحصيلك ، لا جراء حقدك وحسدك وتخريبك على من سواك . فهذا هو المعنى الأعم ، و يندرج فيه غض البصر عن المفاتن وأبواب الشهوة الغريزية الجنسية عند الإنسان، فيجد الإنسان نفسه مانعاً لعينيه من إمعان البصر فيما لا يكون له ، أو فيما قد جعل لغيره ، بالتالي يهدأ القلب وينسجم البال في التركيز الكامل على العمل بشكل عام وعلى الثبات عند ما قسم لك وجعل من نصيبك .

هذا الفهم لحقيقة التحكم فيما ترغب ، والتدريب عليه بشكل جاد ، يجعلك تنام ثابت القلب ، مطمئن البال ، راضي الروح ، مستقراً على ما قسم لك .

ثالثًا : تعويد النفس على الامتناع عن ما لا يجب .

هنا عملية إضافية، تضاف إلى جانب الركن الثاني الذي تحدثنا عنه آنفًا بقولنا عن أهمية القدرة على التحكم بالنفس فيما ترغب ، فإن التحكم بالنفس فيما تصبو إليه وتسعى بالوصول إليه لا يكفي لوحده ولا يغطي القيمة الحقيقة في غض البصر بالكامل ، فإن غض البصر يتعدى هذه القيمة ليصل إلى درجة أعلى وأسمى ، وهي أن يمنع الإنسان نفسه من النظر فيما لا يستطيع الوصول إليه أساسًا لحرمة أو لمانع .

هذا التدريب يأتي على شكل متوازٍ مع قضية القناعة والقبول، فإن الإنسان في حياته قد يحرم مما لو كان له لفسد به أمره ، ولأفسد باستخدامه معادلة الموازنة في هذه الحياة ، بالتالي يحرم منها ولا يكتب له الوصول إليها بالطرق الشرعية .

هنا يأتي الركن الثالث من أركان غض البصر ، فإن غض البصر يستدعي أن يقوم الإنسان بجذب النفس عن ما لا يجوز لها

الوصول إليه مما يعزز القناعة عند النفس بأن الصلاح في طريق غير هذا وفي نصيب أحسن إلى نفسك وأرشد . إن النفس كما ذكرنا تواقة ، وإن في إطالة النظر تمكين للنفس وترغيب لها ، فمتى حجبت بصرك عن ما لا يجب لك ، فهمت النفس وقنعت بأهمية الابتعاد عن ذلك ، لحرمة يخاف الوقوع بها ، ولأذية يخشى إتيانها .

رابعًا : المحاولة المتكررة .

إن النجاح يبدأ بخطوة ، ويكتمل بالمعاودة والإصرار والملازمة، فالأركان الثلاثة المذكورة ، لا يكفي إنشاؤها لإنجاز واجب غض البصر ، بل إن وجود الركن الرابع من الأركان أمر حتمي لنجاح العملية ، فإن على الإنسان دومًا أن يشرع بغض بصره ، يمنع ذاته من الإمعان خوفًا في الوقوع بما لا يجب ، ويسلبها الإصرار على إتيان كل ما ترغب ، وعليه أن يكون على يقين بأن المحاولة الأولى لن تكفي ، وإنه وإن طال به الزمن سوف يكتب لقدمه أن تزل ، لأن الإنسان ينسى ، ولكنه متى عزم أمره على المعاودة ، كان طريق التوبة والإنابة عنده من أول الخيارات ، فليس العيب أن تعاود المسير على أثر تركته ، فإن هذا طريق تصل به إلى مبتغاك ، لكن العيب كل العيب أن لا يكون لك على طريق النجاة أثر .

نعم سوف تبعد ناظريك، يومًا أو عشرين عام، ولكنك في لحظة قد تبصر ما لا يجب.. هذا سوف يحدث، قم بتفعيل التوبة.. وعود نفسك على معاودة السير فيما كنت تسعى إليه.. حينها سوف تنال غض البصر وفضله.. فرداً ومجتمعاً .

خامسًا : المراقبة الآنية الدائمة .

وبسبب أن الإنسان ينسى ، وبأن قدمه لابد لها من كبوة تزلّ بها ، جعل طريق المحاولة والمداومة مفتوحًا بشرط أن يكون له ما يسهل عليه ويحث على السير فيه ، وليس شيء أكثر تحفيزًا للنفس من الإنابة والتوبة من المراقبة الآنية الدائمة .

لابد على الإنسان القويم أن يبادر نفسه بمحاسبتها ، فيحسب عليها تقصيرها ، ويدرس أسباب تقاعسها وتخاذلها ، فيقوم بترميم النوايا ، وتصليح الأفعال والبعد عن الملهيات والجاذبات إلى المعصية. فإن كان العيب في مكان ، فإن الامتناع عن إتيانه خير وأبقى، وإن كان الجذب من أصدقاء السوء يعوض الله الإنسان المحاسب لنفسه بصحبة خير له وأقرب نفعًا ، والشيء بالشيء يأتيه ، فإنك لن تطور نفسك إلا إن منعتها بالمراقبة ، ولن تزهر أوراق الشجرة دونما خريف يسقط عنها أثقالها من الورق المصفرّ الميت .

بهذه الأركان الخمسة النفسية ، يصبح غض البصر من طباع الإنسان ، بل ويكون أيضًا وسيلة للسيطرة على ما سواه وما تشابه معه من نتاج أخلاق وطبائع نفسية ، فيساهم هذا بتغيير شاسع في حياة الفرد حتى يصبح هذا التغيير ملامسًا لحياة المجتمع ، ذلك أن لغض البصر تأثيرات على المجتمع متعددة ومتشعبة ، فهي تبدأ من الترغيب بالزواج المباح ويمتد هذا حتى يصل إلى حفظ الأنساب والمحافظة على هيكلية المجتمع لأن المجتمع الذي لا يحفظ فيه النسب تكثر به الفوضى ويصبح أرضًا خصبة للجرائم والأحداث وأمور أخرى عديدة ترتبط بضياع الأنساب والولادات المحرمة غير المسجلة .

ويطال غض البصر الصحة الجسدية لصاحبه ، فيجعله مبتعدًا كل البعد عن الضغوطات النفسية التي تصيب الإنسان الذي منع عنه ما هو من طبيعته من حب للتمتع والاستقرار وغير ذلك من الضغوط النفسية التي تكون نتائجه عديدة تطال الأمهات لأولاد غير شرعيين والاغتصاب وأحداثه المفزعة وإتيان الطفولة واستخدام براءتها بما لا يجب. وهناك ما يصيب التأثيرات الجسدية ويفسد صحتها ويشمل ذلك الأمراض المنتقلة بسبب العلاقات المحرمة وهي كثيرة يطول شرحها ويزداد في كل عام تفصيلها .

من هنا يدرك العاقل ، حقيقة واضحة كالشمس أن غض البصر - كما حال باقي التكليف - جاء للحفاظ على الإنسان الملتزم به على وجه مباشر ، مؤثرًا بشكل صريح على المجتمع بكل أطيافه وبمختلف صوره ، ومن هنا لا نقول بأن الحل كله يتوقف عند غض البصر ، فمتى وضع غض البصر سقطت باقي التكليفات وأوردت الحياة وتزينت بزخارفها ، ولكننا نؤكد أن الحياة المنعمة تمر في سلسلتها بغض البصر ولا يكتمل حالها إلا به ، فتبقى السلسلة بلا غض البصر ناقصة ، تمامًا كما تنقص سلسلة الحياة المنعمة حين يغيب عنها الصدق والستر والتكامل وغير ذلك .

وقفة لحظات للتفكر .. ولعل للإنسان وقفة ، يقفها عند قول سفيان الثوري ، يتفكر بها مع ذاته ، ويراجع بها نفسه في كل مرة لتكون له هذه المقولة فنارًا يبدأ به غض البصر في كل مرة ، وذلك عن محمد بن يزيد بن خنيس المكي قال: سمعت سفيان الثوري سئل عن قوله تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً}[1]. ما ضعفه؟ قال: "المرأة تمر بالرجل، فلا يملك نفسه عن النظر إليها، ولا هو ينتفع بها؛ فأي شيء أضعف من هذا؟"[2]

---

١. [النساء: ٢٨]

٢. كتاب حلية الأولياء(٧/ ٦٨)

تطبيق الحياء وتنميته .

يعتبر غض البصر من أشعة النور السميكة إذا ما تحدث الإنسان عن شمس الحياء كخلق عظيم يتخلق به الإنسان، ولهذه الشمس في حياتنا نور ساطع، يفيد ما نزل عليه ويجعله بهيًا ، والذي يتخلق بغض البصر يجعل لزامًا على نفسه أن يكون من أهل الحياء العاملين بحيائهم والمتصرفين وفق أحكامه .

إن تذكر الإنسان للستر الذي يحيطه الله به ، فالله لا يفضح أعمالنا ولا خطايانا ، به يسترنا في كل حال طلبنا به الستر ، فيعفو عنا بكرمه ساترًا لعيوبنا ومحتفظًا بتقصيرنا عنده جل في علاه ، فالناظر الواعي لهذا الستر يخجل من أن يتصرف بغير ذلك بين عباد الله ، فتراه يجمع من ستر الله على تقصيره ليتخلق بكل ما هو حسن لاستشعاره مراقبة الله له ، فكيف يفجر بالفعل من أدرك أن الساتر على تقصيره يراه ويسمعه ويحيط به !

وهنا يكون مربط الفرس ، بأن يدرك الإنسان أن التخلق بالحياء هو واجب من واجبات الإنسان الذي يسبح بفضل الله وستره ، ويسير تحت رعايته وعينه ، وذاك خلق يختلف عن الخجل، فالخجول تراه يتحفظ على الفعل صوابه وقبيحه ، لا يحده عنه

حالة الفعل ، بل يمنعه عن الفعل أمور متعددة كثقته بذاته وقدراته، وخوفه من أعين الناس ومقالهم ، غير أن صاحب الحياء يستحي من الله فيأتي الصواب من سبيل مأتاه ويزدجر عن الخطأ مخافة غضب الله واستحياء زيادة التقصير والسوء منه اتجاه ربه .

فيكون الإنسان صاحب الحياء مترفعًا عما لا يجب ، فلا يجاهر بالتقصير، ولا يتلفظ بالقبيح ، ولا يتواجد حيث يفقد ماء الوجوه، فيكون إنسانًا ملتزمًا بأفعاله ، حافظًا لفطرته من أن تدنس بكل ما يلطخ النفوس ويعكر صفو الفطرة السليمة التي خلقنا الله عليها .

لعل حديث الإنسان عن الأمر أوجب عليه فعله، فيفعل ما يقول، ويقيد نفسه بما يقول بأن يفعله ، ومن هنا جاء الحديث عن الحياء من أحد أسباب تطبيقه، فإن المتحدث عن الحياء يذكر به المستمع، ويوعظ به المقصر ، ويشجع عليه الملتزم به، وهو يذكر نفسه ويلزم شخصه بالتنفيذ وهنا نقول تذكر هذا الشعار، كرره وأكثر من ترديده حتى يرسخ في عقلك .

"إن الحياء والإيمان قرناء جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر"[1] ولتطبيق الخلق ممارسة لابد عليك من أن تتدرب على

١. هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم في المستدرك في الصحيحين .

أدواته، فكلما أصبحت أكثر تمكنًا من أدوات هذا الخلق أحسنت تطبيقه وأجزلت في إعطائه حقه الذي وجد من أجله :

١. الحياء فيما تلبس .

إن من الحياء أن تلبس ما يليق بأهل الحياء، فيبتعد الإنسان عن لبس الشهرة الذي يسيء لصاحبه، ويترفع عن لبس ما يجلب لشخصه الإزدراء والتقليل .

٢. الحياء فعلًا وقولًا .

احرص على أن تمشي بالحياء، وتتحدث بألفاظ تحفظ الحياء، وتتكلم بأسلوب يستدعيه الحياء، فصحاب الحياء لا يرفث ولا يصخب، وهو لا يمشي مختالا مرحًا ، ومن ألفاظ المرء تدرك حياؤه.

٣. تهذيب العاطفة .

تقود العاطفة بعض الناس إلى ما لا يليق بهم، فتتحكم بأفعال لا تقبلها عقولهم ولا ترضى بها واقع تربيتهم التي صنعوا عليها، فلابد على الإنسان أن يهذب عاطفته كما تهذيب أخلاقه، وبهذا تتطابق العاطفة مع الخلق فتتأثر به إيجابا ويصبح الإنسان بها مستقرًا .

٤. الهدوء والسكينة .

من أجمل الأنوثة أن تتخلق الأنثى بالحياء كله ، وخاصة في أمر الهدوء في فعلها وقولها ومشيها ، والسكينة في قرارها وجميع حالها . فتاج الأنوثة الحياء ، به تعمر الفتاة قلبها وتزين به أفعالها وأحوالها.

٥. الإكثار من الذكر .

إن اللسان الذي يبقى رطبًا بذكر الله ، يترجم هذا الذكر إلى العقل حياءً ، فيستحي الذاكر لربه أن يأتي بنقيض مقام الله من الفعل – جل الله في علاه - .

٦. تخير من الناس ، أكثرهم حياءً .

مصاحبة الأخيار ، تؤثر في الإنسان بشكل مباشر وذلك من طبيعة البيئة التي تحيط بالإنسان، فالإنسان يتأثر فيمن حوله خلقًا وعملًا، فمن صاحب أهل الحياء، لمس في تعاملهم مع ذاته الحياء، فأصبح بأخلاقهم يتصف ، وبأفعالهم يتشارك .

و يطيب الختام بالعودة إلى صاحب السيرة وذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – في حاله ومحبته لبنت رسول اللهﷺ فاطمة ، فلقد كان شديد الغيرة عليها، شديد الحب لها ، ما

تزوج عليها قط في حياتها ، حافظ على فرجه، وحفظ بصره فما أمعن النظر فيما لا يجب النظر إليه، وهو الذي اكتملت عنده مكارم الرجال وأخلاقهم، فكان الشجاع في فعله، الكريم في عطائه ، الفذّ في ذكائه، الغيور على أهل بيته، حتى أنه يحكى في دخوله لبيته ليجد فيه أم الحسن والحسين فاطمة -رضي الله عنهما- تستاك بسواك من آراك..

فقال :

حظيت يا عود الأراك بثغرها..

أما خفت يا عود الأراك أراك..

لو كنت من اهل القتال قتلتك..

ما فاز مني يا سواك سواك.. [1]

ولعل من كمال العقل، أن يدرك الناظر في هذه الأبيات أن الروايات التاريخية المكذوبة عن تقاعس الفارس الشجاع علي بن

---

١. إن هذه الأبيات ليس فيها سند ثابت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، غير أن ذلك لا يمنع الأخذ بالعبرة منها ، وقد ذكر الدعاة المعاصرين في كتاباتهم من غير سند، وننبه السائل إلى أن كثيرًا مما ينقل عن أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ لا يثبت، ومنه ما لا يليق بحقه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في منهاج السنة النبوية: "فَالْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ الَّتِي تُوجَدُ فِي كَلَامِ عَلِيٍّ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ غَيْرِهِ، لَكِنَّ صَاحِبَ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ، وَأَمْثَالَهُ أَخَذُوا كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ فَجَعَلُوهُ مِنْ كَلَامِ عَلِيٍّ، وَمِنْهُ مَا يُحْكَى عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِهِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ كَلَامٌ حَقٌّ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، وَلَكِنْ هُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ كَلَامِ غَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْبَيَانِ وَالتَّبْيِينِ لِلْجَاحِظِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ، كَلَامٌ مَنْقُولٌ عَنْ غَيرِ عَلِيٍّ، وَصَاحِبُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ يَجْعَلُهُ عَنْ عَلِيٍّ." انتهى.

أبي طالب ، الذي ما منعه باب خيبر من فتحها عن الدفاع عن زوجته التي يحبها ويغار عليها حتى من أن يلامس السواك ثغرها، فكيف لهذا الحب أن يكبت، وكيف للشجاع أن يمنع عن نفسه كرامتها، إن هذا والله لا يصح ولا يجوز في وجود شخصه العظيم - رضوان الله عليه- فليس هو علي بن أبي طالب الذي تعز عليه نفسه أن يدافع عن زوجته وأم عياله إذا ضربت وانتزعت كرامتها ، غير أن خليفة خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لا يكون له أن يعتدي على حرمة أخيه، ولا حبيبة رسول الله ﷺ وفلذة كبده، فليس عمر بالجبار الطاغية بل كان برعيته رحيمًا لينًا منضبطًا في اتباع أحكام الله وإنه والله براء من الذي ينسب إليه ظلمًا وإجحافًا وحسدًا لمنزلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضوان الله عليه. وبدورنا نحن المسلمين نبرأ إلى الله من هذه الأخبار المكذوبة التي تقتنص الفرص لتنزل من مقام الصحابة الكرام ، وتقلل من شيمتهم ومن أخوتهم في الله ، فنحن أولى بنا أن ندافع عن رسول الله ﷺ وأهل بيته الأطهار وصحابته الكرام من تدنيس كل من يحاول أن يبث دنسه أو اختلاق ما يفك وحدة الصف الواحدة .

نعيمان صاحب البسمة

بطاقة الصحابي :

اسمه : نعيمان بن عمرو الأنصاري

اشتهر ب : كنيته أبو عمرو ، اشتهر بمزاحه ومواقفه .

مناقبه : شهد بيعة العقبة الآخرة مع السبعين من الأنصار، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

السعادة الحقيقية

للإنسان لا تتوقف أبدًا عند الضحكات التي تنطلق منه، بعض السعادة لها وقع مختلف، خاصة إذا ما اتصلت بالشخوص التي نحبها وتلك التي لها فضل كبير علينا، فيكون حبها كما الغريزة في القلب من شدة فضلها علينا وقربها منا، ومن يستحق هذا المنزل العظيم أكثر من رسولنا ﷺ، فهو الذي جاء بشيرًا لنا، رحيمًا بنا، تغلب على معاناة اليتم، وتجاوز مصاعب الدنيا حين تكالبت عليه

فوقف مدمي القدمين يقول "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس"، وهنا استمر بما أمر به ، ونافح بالرسالة حتى وصلتنا وشُملنا في رحماتها وبركاتها ، هذا ما أدركه الصحابي الجليل نعيمان بن عمرو الأنصاري ، فجعل سعادة رسول الله ﷺ من سعادته ، وجعل الضحكات التي تنطلق من قلب رسولنا الحبيب ، أعز إليه من أي ضحكة .

فقلب الرسول ﷺ الذي انشغل بحال أمته ، يستحق أن يزرع به بسمة ، فهو الرسول العظيم الذي قال " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله " ذلك لما علمه ورآه ولشدة مخافته لله سبحانه وتعالى ، ولكنه بشر يعلم أن لقلبه حق عليه ، ولنفسه حق عليه ، ولأجل هذا الفهم الذي وقر في قلب نعيمان لحال النبي ﷺ كان الصحابي الجليل نعيمان الأنصاري يستغل أي موقف لإسعاد هذا القلب المضيء و هذا الفنار المرشد .

لقد كان نعيمان يترقب المواقف ليرى السعادة على مُحيّى محمد بن عبدالله ﷺ حتى إذا ما أقبلت قافلة إلى المدينة المنورة خرج إليها فاقترض من بضاعتها أثمنها ، وأقبل بها إلى مسجد

رسول الله ﷺ ، فيدخل بها المسجد ويضعها بين يدي الرسول ﷺ وهو الذي لا يرفض هدية قط ، وذاك من علامات النبوة أن يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة - فإذا ما أقبل صاحب البضاعة يريد ثمنها من مقترضها أتى به نعيمان إلى المسجد فجعله مواجهًا للرسول ﷺ ويقول لصاحب البضاعة ، خذ ثم هذه البضاعة من هذا - ويشير بيديه إلى النبي ﷺ فيندهش من ذلك النبي ، فيقول نعيمان يا رسول الله لا أملك ثمنها فيقبل الهدية خير البشر ويدفع ثمنها إلى صاحبها في سعادة منه و بسمة[١] .

لقد أدرك نعيمان قيمة البسمة ، وفهم معنى أن تكون السعادة هدية نهديها إلى القلوب ، فتزرع في داخل القلوب راحة ، تلك الراحة التي لا تشترى بالأثمان ، ولا تبدل بالأموال الطائلة ، ذاك الفهم ترسخ عند نعيمان الأنصاري ، فاستخدم فكاهة الروح التي يمتلكها كباب من أبواب الخير والأجر العظيم ، فليس شيء يقارن مع إدخال البسمة على حبيب الرحمن ﷺ .

---

١. (٤) (الاستيعاب في معرفة الأصحاب : ج ١ / ص ٤٨٤)

السعادة لغة .

مصدر سَعدَ، أيْ كُلُّ مَا يُدْخِلُ البَهْجَةَ وَالفَرَحَ عَلَى النَّفْسِ.[1]

أما اصطلاحًا .

السعادة ليست بالأمر الهين، فمن الصعب أن نعثر عليها في دواخلنا، ومن المستحيل أن نعثر عليها في الخارج.[2]

لقد ارتبطت السعادة بالحضارات جميعها، فلا تكاد تخلو حضارة من الحضارات المزدهرة من كثير حديث حول مفهوم السعادة سواءً أكانت السعادة القلبية والنفسية أم السعادة الجسدية، فكلاهما تكوين ينطلق من شعور الإنسان بالرضى والقبول، هذا الشعور الذي ينقسم بأشكال مختلفة فيأتي على صورة الفرد، فإذا ما سعد الفرد سعادة حقيقية، أصبح منتجًا للسعادة، فيسعد بأعماله ونتاجه المجتمع.

ويشرع الكُتّاب والفلاسفة في فلسفة السعادة وإنزالها منازل عديدة، منها ما يقبله العاقل الناظر في أحوال دينه ودنياه، وأخرى يرفضها العقل وينبذها، ولعلنا نوضح أساسيات هذا التفصيل بشكل يفسر لنا انعكاس مفهوم السعادة على التطبيق والعمل به .

---

١. المعجم: الغني

٢. من أقوال الفيلسوف شامفور .

سعادة القلب :

لا ينفك التاريخ يحكي عبره وقصصه ، فيسرد لنا الوقائع البشرية الواقعة المنقولة لنا نقلا ، ويقص علينا من قصص الأساطير ما لم تفسده الزيادة الدرامية ، وكل تلك الروايات تجتمع فيما نعاصره مع أنفسنا ومن حولنا في أن الإنسان إنما له نفس ترغب المزيد ، ولا تقنع بما امتلكت أو حازت ، بل جعلت متحفزة للبقاء ، هذا البقاء الذي كان من أول أسباب الرغبة في اقتناص ما هو أفضل عن طريق استغلال كل موقف وكل مورد يرفد لنا مزيدا من كل ما نحتاجه وحتى ما لا نحتاجه . إذًا فكيف يسعد القلب وهو المحفز الأول على طلب المزيد ؟!

إن فهم مفهوم القناعة والرضى ، هو المرحلة الأساسية في بناء ما يعرف بسعادة القلب ، فمتى أدرك الإنسان قيمة ما يمتلك ، وشعر بأن ما عنده قد مُنع منه غيره ، وأحس بأن كل ما يصبو إليه لا ينطلق إلا من إحساسه بنعمة الوقوف على ما امتلك وحاز ، حينها تتشكل نواة السعادة القلبية ، فيشعر القلب بالقناعة ، ويطمئن بالرضى للاستقرار على النعمة ، والمسلم لربه يعلم بالضرورة علمًا لا ينازعه علم ، أن الله تعالى قد كتب له ما يصلح حاله ، وأنعم عليه بما يديم عليه نعمته

ويجعله على أحسن ما يصلح مستقبله . هذه القناعة متى فهمها ، علم حقيقة الصراع في هذا العالم ، وصار التنافس من أجل عمارة هذه الدنيا عنده متعة يبتغي بها من صاحب الفضل فضله ، فما أدرك منها عَلِمَ أنه أدركه بنعمة من المتفضل ، وشعر بأنه أعطي أفضل ما يستحق، وأحسن ما يصلح مستقبله و يُبْقي عَليه خَيرُ حاله ، وأنه ما فاته رغم اجتهاده ومحاولاته ، لم يفته على سوء منه ، إنما منع منه لخير يفتح له ، ولمنفعة تجلب إليه ، فهل يشقى القلب بعد هذا الفهم ؟! لا يفعل .

سعادة العقل :

لا يخفى على أحد أهمية استيعاب العقل لما يدور في محيط المرء، وكيف أن العقل يصدر الأوامر التي سرعان ما يترجمها الإنسان في تصرفاته ، ثم يعود نتاج تلك التصرفات إلى العقل ليقوم العقل بتحليلها وإدراك ما صدر منه ابتداء ، فإن نحن وافقنا على هذه الفلسفة لعقل الإنسان ، علمنا كيف بالإمكان إدراك سعادة العقل في جسد الإنسان . إن سعادة العقل تكون ترجمةً لما يعرف بالرضى عن الذات ، ذاك الشعور الذي يتأثر بالتغذية الراجعة عن تصرفات الإنسان ، أفعاله ، إنجازاته . وبالطبع لا ينحصر أداء العقل على ذلك، ولكنه باب من أبواب العقل ، فمتى أحسن الإنسان في

أفعاله، أو أنجز ما يطلب منه وما يراد من شخصه ، ارتاح باله من التأنيب والتفكير ، لقناعته بأنه قد قدم ما يجب وقد أنجز ما طلب. بهذه الطريقة يستطيع الإنسان أن يطرق بابًا من أبواب عقله فيدخل إليه، فمتى ما شعر الإنسان بحاجته إلى إسعاد عقله ، انطلق باحثًا عن إسكات تأنيب الضمير بأن يقدم الواجب المرجو منه ، وبأن يبحث في دهاليز الطرق عن إمكانية صناعة الإنجاز ، لأن صناعة الإنجاز شعور حسي تماما كما السعادة ، تدخل إلى العقل لتسكت ما به من تذمر ، وتخرس ما به من تأنيب ، وتبدله رضى عن الذات والسعادة بالنفس والقبول بها .

سعادة الجسد .

الجسد ترجمان العقل ، وانعكاس لبواطن القلب ، فلا يستطيع أحد أن يستمر على التنكر عن ما بداخله ، بل تجده في المواقف والأزمات ينحسر عن كل تنكر ويضرب بالأقنعة عرض الحائط، ليظهر على جسده بواطن قلبه، شقي أم سعيد . ومن هنا كانت سعادة الجسد منبعثة من اكتمال السعادة في القلب و متسببة في إسعاد العقل وسبب له . وإن الأفكار الضالة التي تصور سعادة الجسد أنها سعادة المأكل والمشرب، أو سعادة إشباع الرغبات بأنواعها، كرغبات

الامتلاك أو رغبات الظهور والسلطان أو حتى رغبات الغريزة الجنسية، إنما هي ادعاءات عارية الصحة ، عَرَفت السعادة اللحظية الظاهرة، وأغفلت أن هذه الرغبات إنما يتشارك بها الإنسان مع الحيوان، وهي تشكل جزءًا بسيطًا من سعادة الإنسان ، بل وزاوية ضيقة من تعريف السعادة المتسعة في حياة الإنسان، المخلوق المكرم.

فمن عرف تكريمه و فهم حقيقة وجوده ومآله، لم ينصرف عن السعادة الواسعة بجزء بسيط منها زائل لا محالة ، متبدل لا يثبت ومتغير لا يدوم .

هذه المفاهيم الفلسفية للسعادة اجتمعت في إدراك نعيمان الأنصاري ، بفطرته وحسن نيته ، علم أن السعادة القلبية تنعكس على الجسد ، والذي كما أوردنا يسبب سعادة العقل ويتأثر بها ، فأراد أن يجعل سعادة النبي ﷺ قربة يتقرب بها إلى الله ، فكان يرضى عن ذاته إذا ما أسعد النبي البشير ، وكان يتحرك بجسده على هذه السعادة فتراه يذهب ويأتي ليفتعل السعادة ويهبها إلى قلب الرسول ﷺ . هذا الفهم الواعي لعملية الأجر في الإسلام ، الذي تجاوز قضية العبادات - ولم يهملها - وعرف قيمة حق النفس البشرية على صاحبها فأعطاها حقها بما يرضي الله ويسعد رسوله .

نعيمان كان فكرة وتطبيقًا ، وقدوةً ومثالًا ، نرد به على من يعتقد أن الالتزام الديني بما هو مقدس لابد أن يتناغم معه عقد الحاجبين وحمل هموم الأمة فلا فرحة تجيء للقلب ولا ابتسامة تشرق في الوجه ، فمن يحمل هما كما هم الرسول ، ومن يهتم للأمة كما كان ﷺ غير أنه كان يضحك من صنيع نعيمان ويدعو له بالخيرات .

زرع البسمة تطبيق من تطبيقات السعادة .

« البسمة بالبسمة ، والبادئ أجمل ! »

بهذا الشعار ينطلق الإنسان في حياته مستندًا على حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، حينما علمنا أحد مسببات السعادة في المجتمع فقال : (تَبَسُّمُك في وَجْه أَخِيك لك صدقة)[1] ومنها يأتي الانطلاق إلى مجتمع تتشعب الطمأنينة بين أفراده لتشابك بين قلوبهم وتسد الفجوات بين أفعالهم اهتمامًا ورعاية . إن أصدق التبسم في وجه الإنسان يكون منطلقًا من اهتمام صادق منك بجميع أحواله ، دونما تدخل أو تطفل ، ورعاية منك لما يحتاج وما يرغب ، فتكون له سندًا في وقت ضيقه ، وعيدًا في أوقات فرحه ، تتواجد معه بكلا الأمرين على

١. رواه الترميذي

حد السواء فلا يعتازك في العزاء ولا يفتقدك في الفرح . إن زرع البسمة في الآخرين لا يكون في أن تتبسم فحسب ولكن بأن تراعي بصدق مسببات تبسمك في وجهه حين تلقاه ، ويكون ذلك بمحبة الخير له ، والرغبة بأن يكون له ما ترجوه لنفسك ، وليس كجمال الإيثار جمال يدعوك إلى أن تتبسم في وجه أخيك .

ولعل للباحث عن زراعة البسمة على وجه من يحب مداخيل يدخل منها ، نذكر منها :

١. الهدية ، حتى البسيط منها .

إن تقديم الهدايا والمنح يحمل إشارات قلبية تزرع السرور على متلقيها، وليست السعادة في الهدية ترتبط بحجمها أو قيمتها المادية، بقدر ما ترتبط السعادة بصدق تقديمها وذكاء اختيارها وتخيّر موعدها .

٢. عبارات الشكر ، والامتنان بالتصرف .

تبقى لعبارات الشكر رونق خاص على قلب من يتلقاها ، كأن تشكر والدتك على إعدادها للغداء وتشعر بالامتنان لوالدك على عمله المتواصل من أجل راحتكم . الشكر الجالب للسعادة هو أن تُرسل «شكرًا» برسالة لصديقك الذي يهتم لأمرك ، أو تكتب شكرًا في

عمل لمن شاركك بإكماله، كل تلك اللفتات البسيطة تحمل عند المتلقي معنى بليغ .

٣.المزاح والنكتة .

في اللحظات العصيبة ، وحالات التشنج التي تزور المرء في أوقات الضغط ، يكون للمزاح الخفيف أثر كما الدواء للجروح ، فهو يهدئ من القلب ، ويجمل الوجه بالبسمة .

٤. رسالة من غير مصلحة !

رسالات الاطمئنان العشوائية ، لصديق أو قريب بعد فترة من الغياب يكون في طياتها الكثير من الذكريات الجميلة التي تزور القلب فترسم على الوجه اطمئنانًا وبسمة . جمّل رسائلك بالمشاعر الطيبة .

٥. وكم من قلب يحفّز بكلمة !

لبعض الأوقات شديدة الضغط، وللأيام الكئيبة التي يمر بها المرء بين الحين والآخر احتياج كبير لسماع كلمة تشد عزيمة القلب وتلين عصبية الروح. أخبر أحدهم بمحبتك لخلقه الطيب، وأسعد الآخر بأناقته في هذا اليوم، لا بأس بأن تخبر من يحاول أن يفقد وزنًا بأنه يبدو أنحف، أو حتى ذاك المتعلم يفرح حين تعبر له عن

إعجابك بسدادة رأيه، كل البشر بلا استثناء يحبون المديح الصادق. كن صادقًا ووجه لهم ما يسعد قلوبهم .

٦. أجمل الهدايا ، صدقة .

في بقعة لا يزورها الإنسان، لا يتمكن من تعبئتها بالحسنات مطلقًا إلا بصدقة تتصدقها عنه فيها. حين تذهب لزيارة بلدة بعيدة، أو قارة جديدة، قم بالتصدق عن الذين تحبهم هناك وأخبرهم بفعلك. هذا خير يسعد أهل الخير ويشعرهم بالفرحة .

٧. سمّني بما أحب !

كل شخص يحمل اسم ولد به ، لكن قلبه يطئمن لمشتقات هذا الاسم أو لقب غيره، احرص حين تلقى أخاك أن تناديه بأحب الأسماء على قلبه، راغبًا في زراعة البسمة على وجهه .. ستنجح في ذلك ولا شك .

٨. دعوة من غير طلب .

وأنت ترفع يداك إلى السماء داعيًا ، تذكر من تحب بالدعاء ، اشملهم في خير دعائك ، وخصص لهم في دعائك ركنًا تسأل الله لهم ما يحبون ، ثم أخبرهم بفعلك .. هذا يصنع البسمة على الوجه ويسعد القلب أيامًا وأيامًا . احرص أن تفعل ذلك بنية إسعاد مسلم .

وفي الحديث عن السعادة ، يرى حجة الإسلام أبو حامد الغزالي أن السعادة في تحصيل الملذات والتي قسمها إلى نوعين:

أ. الملذات الحسية أو المادية والمرتبطة بإشباع حاجات الجسم.

ب. الملذات النفسية أو المعنوية: وهي أرقى من الملذات الحسية، ويحصل عليها الإنسان من إشباع حاجاته النفسية والاجتماعية والدينية، ويرى الغزالي أن أسعد الناس في الدنيا أكثرهم معرفة بالله، والسعادة الحقيقية عنده هي الأخروية لأنها السعادة الدائمة والسرور الذي فيها لا غم يشوبه ، والعلم الذي بها لا جهل فيه. في[1].

ولأهل الحضارات القديمة نظرة لا تختلف كثيرًا إذا هم فهموا وأنزلوا الأمور في نصابها الحقيقي ، فهذا أفلاطون ذهب إلى أن السعادة في سلامة النفس وليس في سلامة البدن، وهي في فضائل الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، و أتبعه الملقب بالمعلم الأول أرسطو حيث يعتبر السعادة هبة من الله يحصل عليها الإنسان عندما يسير في طريق الفضيلة ويعمل الخير . [2]

---

١. كتاب الموسوعة الفلسفية العربية والاصطلاحات والمفاهيم (٩٧٩-١/٩٧٨)

٢. كتاب تحصيل السعادات، الفارابي،ص٤٩ ٢. ومجلة الجمعية الفلسفية المصرية،ع ١٠ ، س.٥١ – ص.

ذكر ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أم سلمة أن أبا بكر ،رضي الله عنه خرج تاجرًا إلى بصرى ، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة ، وكان سويبط على الزاد ، فجاءه نعيمان فقال : أطعمني، قال : لا ، حتى يأتي أبو بكر ، وكان نعيمان رجلا مضحاكا مزاحا، فقال : لأغيظنك , فذهب إلى أناس جلبوا ظهرا (الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال) فقال : ابتاعوا (اشتروا) مني غلاما عربيا فارها، وهو رعّاد ولسّان ، ولعله يقول: أنا حر .

فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لي ، لا تفسدوا علي غلامي ، فقالوا : بل نبتاعه منك بعشرة قلائص (والقلوص هي الناقة الشابة القوية) ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ، ثم قال: دونكم هذا ، فجاء القوم فقالوا : قد اشتريناك فقال: سويبط : هو كاذب، أنا رجل حر ، فقالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في عنقه وأخذوه ، فذهبوا به ، فجاء أبو بكر ، فذهب هو وأصحاب له، فرد القلائص وأخذوه ، فلما أخبر النبي بالقصة ضحك، وظل يضحك وأصحابه كلما تذكر تلك الواقعة حولا كاملا . [١] هذا إذ لم

---

١. مسند ابن راهويه :ج ٤ / ص ٩٨

يكن ﷺ معنفًا لأصحابه، قاتلا للبهجة فيهم ، إنما كان كما سماه ربه "وإنك لعلى خلق عظيم"[1]

ولعلنا نضع في سطر الختام دعوة نقول بها ، أسعد الله قلبًا أسعد رسول الله ﷺ وأسعد قلوب مؤمنة من أمته .

١. سورة القلم اية ٤

البراء بن عازب معلمًا

بطاقة الصحابي .

اسمه : أبو عمارة البراء بن عازب الأنصاري

ولادته : ولد رضي الله عنه قبل الهجرة بعشر سنوات

اشتهر ب : أسلم صغيرًا في العاشرة من عمره على يد مصعب بن عمير ، وقد اشتهر أنه عرض نفسه للجهاد صغيرًا في بدر وأحد، ولم يجز له لصغر عمره إلا في الخندق وهو ابن الخامسة عشر من العمر .

وفاته : توفي رضي الله عنه وأرضاه بالكوفة سنة ٧٢ هـ في إمارة مصعب بن الزبير.

جعلتنا البيئة

التي نعيش فيها متجمعين فيما يعرف بالمدن والدول، وهي تلك المساحات الجغرافية التي يتفق الناس على النزول بها للاستقرار ، لما

تملكه من عوامل تساعد على إقامة الحياة وديمومتها ، سواءاً كان ذلك على جانب الاحتياج الجسدي لحاجيات البقاء أو الاحتياجات المتعلقة بالأمور الروحانية والنفسية ، من هذا المنطلق يجتمع الناس وتتداخل أحوالهم فيما يعرف بالمجتمع، فيصبح الواحد فيهم عنصرًا من كيان المجتمع ، يتأثر بصفاته ويؤثر بها بشكل أو بآخر ، فيتسبب الفرد في نشوء ما هو فاعله في البيئة ويتأثر ذات الفرد بردات فعل المجتمع حوله وأفعالهم ، من هذا المنطلق وبهذا الإدراك انطلق البراء بن عازب يومًا يمشي في الطرقات ، فلقيه أحد التابعين واسمه أبو داود ، فلما تقابلا تقدم البراء إلى صاحبه فمد إليه يده يصافحه ويبتسم ، ولم يتوقف عندها ولكن البراء بادر أبو داود بالسؤال : أتدري لم أخذت بيدك ؟

قال أبو داود وهو يحسن الظن بصاحبه: لا إلا أني ظننتك لم تفعله إلا لخير !

قال البراء : إن النبي ﷺ لقيني ففعل بي ذلك ثم قال: أتدري لم فعلت بك ذلك؟ قلت: لا ، فقال: قال النبي ﷺ: «إن المسلِمَين إذا

التقيا وتصافحا وضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه لا يفعلان ذلك إلا لله لم يتفرقا حتى يغفر لهما».[1]

هذا التبليغ الفعال للسنة النبوية ، بأن يكون التبليغ به العمل على الفعل من الأساس ، وإعطاء القدوة الحسنة ، وبيان سهولة التنفيذ من خلال المباشرة ، يجعل تبليغ السنة النبوية للناس مختلف السبيل ، لأن هذا الأسلوب العملي في تنفيذ السنة وتعليمها يحمل في طياته مصابيح هداية وتسهيل الفهم على العقول.

المعروف لغة:

قال ابن منظور: (المعروف: الجود).

وقيل اسم لما تبذله وتسديه، قال الزجاج: «المعروف: ما يستحسن من الأفعال»[2]

والمعروف مأخوذ من المعرفة، وهي في أصل اللغة العربية : اسم لما يعرفه القلب ويطمئن إليه، وتسكن إليه النفس، قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[3]

---

١. كتاب غذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني الجزء الأول.
٢. لسان العرب ج٤ من ص٢٨٩٩: ص٢٩٠٠.
٣. سورة لقمان آية (١٥)

المعروف شرعاً:

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس.

المنكر لغة:

اسم لما تنكره النفوس وتشمئز منه ولا تعرفه، والمنكر من الأمر خلاف المعروف، قال تعالى:﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[1]. أي أقبح الأصوات .[2]

المنكر شرعاً:

اسم جامع لكل ما عرف بالشرع قبحه، من معصية الله تعالى وظلم عباده.

الأمر بالمعروف والنهي على المنكر ، هو المبدأ الذي انطلقت منه الشريعة المحمدية لتجعل أمتها خير أمة أخرجت للناس ، حيث أن هذا الخلق العظيم ، ما انتشر في أمة إلا وحسن ناتجها ، وبارك الله في واردها ، لأن خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يأتي من هواء ، ولا يكون - كما كل التكاليف - إلا منضبطاً وواضح

١. سورة لقمان آية (١٩)
٢. لسان العرب ج٦ من ص٤٥٣٩.

المعالم ومتشعب الفروع في حيثيات تطبيقه، ولعلنا في خضم حاجتنا لمناقشة هذا الخلق العظيم أن نرتكز على جوانب خمسة شديدة الأهمية .

1. أهمية التعلم قبل التعليم .
2. ما مدى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟
3. لمن يجب هذا الخلق ؟
4. وجوب الاجتهاد تطبيقاً .
5. ضرورية العصمة وانعدامها .

أهمية التعلم قبل التعليم .

إن الإنسان إذا ما نظر نظرة تفصيلية لخلق الأمر بالمعروف والذي يبقى ناقصًا دونما النهي عن المنكر لوجد في ثناياه أنه متلاصق مع خصائص التعليم ، فهذا الخلق يندرج في قاعدته الأول في تعليم من يرجى أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر ، قبل إقامة الأحكام عليهم و إلزامهم بالتكاليف . إذا فالأمر بالمعروف كما التعليم ، يخرج من المرء لينزل في ساحة أخيه الإنسان ، تلقينًا أو نقلاً أو تطبيقًا .

ولضرورية التعليم في جانب تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنجد أن هذا يتصل لازمًا بالتعلم والتوسع في مجالات العلم .

لابد للناصح من أن يكون ملما بما ينصح ، مدركًا لأركانه وأحكام تطبيقه ، بالتالي يأتي دوره في أن يشرع في تعلم ما يتحدث عنه ، ودراسته من مصادر موثوقة ، وبأساليب صحيحة ، فمتى جاء النصح من جاهل ، سادت الفوضى ، وفيها يصح قول الله تعالى «ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»[1] . من هنا وجب على الإنسان أن يتعلم العلم بمجمله ، والتخصص في أمر لا يمنع المعرفة الكلية بما يحتاج الإنسان ، فإن النصيحة لابد أن تحتاط لنفسها ، فلست تنصح بما لا تفهم ، ولست تنصح بما لا تعلم خيره من شره ، إنما عليك أن تختار لنصيحتك البيئة المناسبة لها فتجعلها تنمو في وسط جو من المعرفة .

إذا ما التزم كل واحد منا ، بأن يعطي النصيحة فيما يعلم، ويتجنب نقل المعلومات والأقوال بدون سابق وعي و فهم ، عندها سوف نجنب الأمة الكثير من الأخطاء التي تنقل من شخص لآخر على غير أساس علمي ، وسوف نفتح المجال على مصراعيه للعلم

١. سورة النحل الآية: ١٢٥

وأهل الفهم ، ليكون تطبيق الناس خال من شوائب النقل الخاطئ أو الفهم غير المدرك للأهمية .

هنا يجب على الناصح أن يحرص على تعلم أساليب النصح السليمة ومعرفة طرح الحوار والمناقشة العلمية بما يحمل من معاني التأدب والالتزام الفكري بالثوابت والمبادئ بعيدًا عن المهاترات أو الفضح والتشهير ، فإن أسلوب النصيحة السليم هو نصف طريق وصولها إلى موقع تأثيرها . فبعد أن تحقق شرط التعلم ، فتكون ناصحًا بما تعلم علم اليقين ، وتتدرج في تعلم أساليب الحوار والاستماع فتصبح مستعدًا على تقديم النصيحة على طبق فاخر من المودة واللين حتى تكون نصيحة تبني ولا تهدم ترفع ولا تفضح، ويبقى العنصر الثالث وهي القدرة الكافية على الاستماع لتبريرات الآخر وإنزالها منزلها من الاهتمام ومحاولة استيعابها دون الانقياد خلف الجدال ومحاولة تبادل صفعات الاتهامات مع من تنصح .

ولعل مما يجب ذكره أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد عليه أن يبتعد كل الابتعاد عن الأمور المختلف فيها ، فأنت إن قمت باتباع رأي مذهبي دون رأي آخر لا يسعك تسفيه الرأي الآخر واعتبار أن متبعي الرأي الفقهي الأول هم الذين أتوا بالمعروف

وفعلوه ، لما في ذلك من تأثير على تقسيم وحدة الصف وافتعال النزاعات بين المدارس المذهبية المعروف خيريتها .

ما مدى أهمية الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

ما جعل هذا الخلق من أخلاق الخيرية المناطة بهذه الأمة، إلا لوقعها المؤثر على صناعة الحياة العادلة المريحة للبشرية ، فإن قضية التناصح أو الأمر بالمعروف تنعكس بشكل مباشر على الأفراد منفصلين والمجتمعات بتجميعها للخلق الفردي . فإن المجتمع بأكمله سوف يرفض رفضًا قاطعًا أن يأتي الأمر بالمعروف من عديم خير ، ولن يقبل النهي عن المنكر من شخص مبتلاً به و واقعًا فيه لا يحاول نفض أوساخ هذا المنكر عنه ، بالتالي فمما هو طبيعي أن المجتمع بشكل عام سوف يكون مراقبًا جماعيًا على هذه العملية فيصلح بها حال الفرد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، فيكون راغبًا في كل أبواب الخير ، طارقًا لها ، والجًا إياها ، ومبتعدًا أيما ابتعاد عن المنكر الذي يوضح ضرره للمجتمع و يحاول التنفير منه ، حتى يشابه قول الشاعر :

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتيَ مِثلَـــــهُ عـارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلتَ عَظيـــمُ

ابدأ بِنَفسِكَ وَانهَا عَن غِيِّهـــــا فَـإِذا انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكيـمُ

فَهُناكَ يُقبَل ما وَعَظتَ وَيُقتَدى   بِالعِلــــمِ مِنكَ وَيَنفَعُ التَعليمُ

(أبو الأسود الدؤلي)

ويتأثر بلا شك المجتمع بالأفراد ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يأت مقننًا لأشخاص دون غيرهم ، بل جاء أمرًا لعموم الأمة أن تقوم باتباعه ومحاولة تطبيقه ، كل على وسع ما أعطي ومنح بالتالي يكون عامل التأثير بين الفرد والمجتمع متكامل بعمل كل واحد منها اتجاه الآخر ، فإن من المعروف أن صلاح الفرد يعود على المجتمع بالاعتدال ، وصلاح المجتمع يأثر على الفرد ، باعتباره قد أصبح رأيًا عامًا فيقيمه وينظم أحواله . ولا شك إن انعدام هذا الخلق في المجتمع يؤدي إلى تفكك الصلات في المجتمع وتناثر الحبات ، فيصير المجتمع فوضويًا ، لا ينتهي عن باطل يأتيه ، ولا يتخلق بالخير الذي ينفعه ، فتشيع الرذيلة لقلة محاربيها ، وينتشر الفساد لكثرة المستفيدين منه ، ويصير الأمر غابة لا يسيطر فيها على أطماع القوي من الضعيف مسيطر .

لمن يجب هذا الخلق ؟

إن الاستطاعة من صفات المهمة التي لابد أن تتوافر في من

يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فالتعلم وفن الحوار والاستماع كلها صفات مهمة ، لكن لابد أن يضاف عليها مسؤولية التنفيذ استنادًا لقول النبي ﷺ فيما يرويه عبدالله بن عمر رضي الله عنه : «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]

١. السلطان وصحاب القرار .

يكون لصحاب القرار سلطة عليا في الأمر بالمعروف بإيجاد الوسائل الكافية لتوعية المجتمع بأهمية ما يصلح هذا المجتمع فيما يتعلق بالأمور الدينية أو الدنيوية فيأتي نشر الوعي على الأفراد فيما يمس حياتهم، وعلى الجماعات بما يستخدم اجتماعهم ووحدتهم ويساهم في توجيه مسؤولياتهم تجاه المجتمع . فإصلاح التعليم المدرسي مثلًا لهو جانب مهم من جوانب صناعة المعروف داخل المجتمع والحث عليه، والملصقات التوعوية، والإعلانات الموجهة والفعاليات والمهرجانات التي تعنى بتطوير المجتمع بدل أن

١. متفق عليه .

تقوده إلى ما يشغله ولا يغنيه وغير ذلك من وسائل التوعية الكثيرة كاستخدام الشخصيات المؤثرة ودعم المؤسسات الخاصة بالإصلاح وإعطاء المساحة المخصصة لها ويغطي الأمر جوانب عديدة حتى أنه يصل إلى تشجيع الإصلاح على منابر الجمعة ومكبرات الدروس الدينية والمدنية .

وكذا النهي عن المنكر ، فإنه يمر بكل مراحل التوعية ثم لا ضير من إيجاد القوانين التي تمنع الفرد من الوقوع في المنكر ، وإيجاد التسهيلات لأتيان المعروف وخلق الصعوبات على الولوج في المنكر، فيتم توطيد الظروف التي تقود الفرد إلى التزام التأدب والابتعاد عن المنكر ، وهذا يشمل المراقبة اللصيقة لكل ما يدمر المجتمع على المستوى الديني بمراقبة حلقات نشر الوعي الديني السلبي ومحاربة الإلحاد وتداعيات شق الصف الواحد وإيقاع العقوبات موقعها من التنفيذ، وكذلك فيما يهتم بالجانب الدنيوي فلابد على صاحب السلطة أن يشرع القوانين التي تسد الطرائق نحو المنكر فيقوم بحملات إيقاف الفتن ، ومنع المجون ومحاربة ما يثبت ضرره فيما يتعلق بالخمارات والدور الموزعة للإباحة الجنسية وحين تكون هذه القوانين موجهة مع حملات واسعة من حملات الوعي عندها يدرك

الفرد والمجتمع أنها جاءت لإصلاح الضرر والكف عن الأذى وليس لسلب الحقوق واعتقال الشخصيات . فكما أن النصيحة من الفرد لابد أن يمر صاحبها في مراحل التعلم وإتقان الحوار والنصيحة، فكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السلطات لابد لها أن تمر بمراحل التعليم والتوجيه وخلق الإدراك الجماعي في الرأي العام باستخدام وسائل الإعلام والجذب بشكل سليم .

وجب التنبيه أن صاحب السلطان لا يستدعي فقط ولي الأمر العام ، بل يتدرج هذا في كل تدرجات الحياة كأن يكون المدير في مدرسته ، والمعلم في صفه ، والرئيس في مؤسسته وغير ذلك .

٢. الأب والأم مع الأبناء .

لا يختلف عاقل عن أهمية الدور التربوي الذي يلحق بالبيت من واجبات الأم والأب اتجاه الأطفال ومن جوانب التربية المهمة زرع قيم النصيحة وتقبل النقد البناء في الأطفال ، بحيث يتخرج من هذا البيت إلى المجتمع الخارجي أفراد قادرون على استيعاب التوجيهات الحقيقية النافعة لهم وحاملون القدرة الكافية على تمييز المنكر للابتعاد عنه . إن من المشاكل التي يقع بها المجتمع مع أولئك

الذين لا يقبلون النصيحة بل ويتمادون في الأذى و المنكر أكبر من المشاكل المترتبة على المنكر الأساسي ، ولذا جاء العلاج في التعامل مع هؤلاء النفر بضرورة أن لا يكون النهي عن المنكر بمنكر أكبر منه . فإن كان الطفل قد نشأ وترعرع في جو تعلم به أن النصيحة هي معروف جميل يسدى إليه من محب ، وأن النقد والأمر بالابتعاد عن المفسدة هو خلق عظيم فلابد أن يقبله من فاعليه بعيدًا عن تصنيفات الحقد والغيرة التي ترسبت في عقولنا مع كل من يحاول تطويرنا أو نقدنا بشكل موضوعي وبناء .

٣. النصيحة بين الأقران .

وهي الأسلوب العام للنصيحة ، أو التطبيق الفردي لها والأسلوب يستوجب من صاحب النصيحة أن يبقى متيقظًا لإتقانه على كل حال، لأن المجتمع الذي لم يألف على النصيحة وتداولها يكون قد ترسخت عنده قناعات باطلة مفادها أن كل من يحاول انتقادك فهو يملك النوايا الخبيثة نحوك ، وتلك المقولة التي قاموا بحشو عقولهم بها بأن «الشجرة المثمرة لابد أن ترمى» ، متناسين أن الإنسان قابل للتطور وأن من المرء أن ينسى ويخطئ ، هذا الجانب يتعزز دومًا بأن يكون الناصح لقرينه حريصًا على إبداء الإعجاب بالعمل في

طور النصيحة، والاهتمام بسرد النصيحة على أنها رأي متواضع، وليس محاولة تقديمها بمبدأ الاستعلاء والتعليم .

ومن باب التذكير لابد أن يتذكر المرء أنه في حال تغيير المنكر له حسب الاستطاعة حالات ثلاث فهو إما مغيرًا للمنكر بيده في حال اكتمال الاستطاعة ، أو آمرًا على التغيير بلسانه ، والأمر كله يبدأ من مرحلة الابتداء بأن يغير المنكر بقلبه .

٤. وجوب الاجتهاد تطبيقًا .

من غير المنطقي أن يكون الناصح بالأمر تاركًا له ، وأن يكون المنكر للشيء مقترفًا إياه في كل حل وترحال ، فكيف يكون الحال من الإنسان الذي هو من طبعه أنه ينسى ؟! يكون الحال مقترنًا بالاجتهاد الصحيح على الفعل وقت النصح به وإنكار ما سواه ، فيكون الناصح بالصدق حريصًا على الاجتهاد في تحري الصدق في أفعاله وأقواله ، وكما المحارب للرشوة مجتهدًا في رفضها ورفض أدائها أو سرقة حقوق الآخرين باستخدامها ، فإن الاجتهاد في فعل الشيء هو أساس تنفيذه ، وهنا يكون الإنسان حريصًا كل الحرص على الاجتهاد الحق في التطبيق والابتعاد بأن يكون مجتهدًا على

الأمر في سره وظاهره ، مهتما بتطبيقه في كل حاله ، مع الخاصة والعامة ، في الشدة والرخاء .

٥. ضرورية العصمة وانعدامها .

من المفاهيم الخاطئة التي تطرأ دومًا في خضم محاولات المصلحين لصناعة رأي عام قائم على المعروف ومُنكِرٍ للمنكر وجود الدعاوي التي توجه الانتقاد للقائمين على النصيحة في تقصيرهم في الأعمال و وقعوهم في الخطأ مرارًا وتكرارًا ، ويصبح أول أساليب الدفاع عن الذات ضد من يهديك نصيحة بأن توجه له التهم التي تلبسه عباءة النفاق وتجعله من أهل الرياء وتأمره بالانشغال في إصلاح حاله في كل الأمور قبل التوجه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . متناسين أن زمان العصمة قد ذهب إلى غير رجعة ، وأن العصمة التي لا تقبل المعصية ولا تتواجد مع أي خطأ قد ذهبت مع عصر الأنبياء والرسل ، فإن كانت العصمة في الحال كله واجبًا من واجبات إعطاء النصيحة والنهي عن الوقوع في المفسدة لتغير الحال إلى الفوضى العارمة ، ولسقط المجتمع في مستنقعات الفساد النتنة التي لا خروج منها . إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يرتبط بالخيرية المطلقة للفرد ولا أهمية عدم صدور الأخطاء منه،

ذلك أن الإنسان الواعي يدرك أن الحرص كل الحرص لن يشفع للمرء من الوقوع في الأخطاء ، ولكن الخير يعرف من أهله ، فمتى كان الإنسان على خير ، لم يعب عليه التقصير والخطأ لأن هذا من طبيعة المخلوق المنزوع العصمة . وهنا يطيب قول أبو حامد الغزالي حين قال «انظر إلى قولي ولا تنظر الى عملي ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري» .

البراء بن عازب عرف الأمر بتمامه ، فأخذ ينتهج فعل النبي ﷺ، فصار مجتهدًا في الحال يتقرب إلى الله في كل معروف، ويأتمر بأمره في البعد عن كل منكر ، ومن تربية النبي -صلى الله عليه وسلم- ينهل ، فتراه يمشي في الطرقات ، يعلم النهج ، وينشر العلم فعلاً وقولاً ، متسلحًا بالابتسامة، و متسترًا بصلاح حاله واجتهاده ويظهر هذا في قوله « لا إلا إني ظننتك لم تفعله إلا (لخير»، مقدمًا النصيحة لمن يقبلها وبأسلوب يقبل الاستماع ويسير إلى الحوار ، بهذا المثال الواضح إذاً جاءت القدوة من البراء بن عازب لتكون منارة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

مواطن تطبيق النصح وتنميته .

«كن ناصحًا كما تحب أن تنصح » هذا الشعار دقيق المعاني، مشتمل الأفكار ، ما سار به ناصح إلا وبلغ المنى في نصحه ، فالإنسان العاقل يعي أن للنصح أبواب تطرق في قلوب الناس ، فلا يؤتى الحديث عن طريقها ليصل إلى القلب ويؤثر في الجوارح، وأي طريق غير طريق تلك الأبواب يذهب بالنصيحة مواطن لا يحمد عقباها. فاختيار الوقت، وتخصيص الأسلوب ، والتمتع بحسن اللفظ مع كل شخص حسب حاجته وعلى ما يناسب إداركه ووضعه الآني لعملية شديدة الصعوبة ولكنها مع التدرب تصبح أسهل، فعليك أن تُحمل نفسك أدوات النصح لتسهل عليها النصح وتقرب نفعه وذلك بالتالي :

١. ابدأ نصحك بالمحبة والحديث الطيب .

وخير من فعل ذلك هو خير البشر حين جاء ينصح معاذًا فقال : " يا معاذ! والله إني لأحبك .. " البخاري فإن طيب الحديث في بدايته وصدقه يجعل وقع النصيحة في قلب الشخص مختلف ، فتدخل من باب يريده القلب ويطمئن له .

٢. لا تنتقد الشخص ، بل انتقد الفعل .

مهما كان المخطئ متواضعًا فإنه في آخر المطاف إنسان، وترفض إنسانية الإنسان في لحظات الخطأ أن يوجه لها الاتهام لأنها سوف تسارع في عملية الدفاع عن ذاتها، انتقد عمل الشخص ولا تنتقد شخصه.

٣. لا تسخر ولا تكثر اللوم .

لا مجال للنصح في السخرية ، فالناصح يكون محبًا و راغبًا في نشر خير وإتيان منفعة ، وعكس ذلك تسير السخرية ، فالإنسان إذا ما كان ناصحًا فعليه أن لا يكون(مستحقرًا ولا ساخرًا ، بل وإن عليه أن يتجنب صيغة الأمر في حديثه ويبتعد عن كثرة اللوم لأنها تدمغ القلوب . إياك أن تنسى أن الإلحاح في النصيحة وكثرة تكرارها لا يستدعي بالضرورة نفعها !

٤. لا تخصص ، فتخسر قلبًا و تكسر كبرياءً .

من أجمل النصح حين يكون جماعيًا ، فالمخطئ ولا شك يدرك الخطأ إذا ما أشير إليه ، فمن غير المهم أن تشاهد وجه المخطئ وهو يتمعر أثناء تفضلك بنصحك له ، كن في نصحك عمومي اللفظ، جماعي الحديث ، فلا تشر بالبنان ولا تحرج إنسانًا يكفيه حرجه في خطئه.

٥. وبعض النصح يأتي مبتكرًا .

مع تواصل التطور وكثرة استخدام الناس لبرامج التواصل الاجتماعي ، أصبح للنصح السليم أسلوب محبب ، أرسل مقطعًا صوتيًا لشخصية محببة ، أو مقطعًا مسجلًا لمحاضرة أو وعظ مبتكر، أو حتى برنامجًا يناقش الأفعال والأخلاق السيئة ، سيكون من الجميل أن يكتشف المقصر تقصيره بنفسه ويطور من ذاته ويعدل من تقصيره بنفسه .

٦. انصح عن بينة !

البينة الواضحة ، والدليل العلمي الظاهر وما يحذو حذوهم من الدلائل الموثقة هي إسناد النصح وتثبيت منفعته ، إذا ما تمت مراعاة أسلوب الطرح ووقته المناسب . حين تكون ناصحًا تثبت من نصحك وتحقق منه أولاً ، فجهز دليل نصحك ، وأرفق معه قصة للتطبيق مناسبة . هكذا تغلف نصحك بما يليق ليحسن تقديمه ويطيب تنفيذه .

ويطيب الحديث بذكر مقال سفيان الثوري حين قال موجهًا .. " إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق."

ومن مواقف النصح التي اشتغل البراء بن عازب بتعليمها ونقلها للناس والتي سطرها التاريخ وحفظها لحسنها وحسن أدائها، عن أبي إسحاق قال: قال لي البراء بن عازب: ألا أعلمك دعاء علمنيه رسول الله ﷺ قال : إذا رأيت الناس قد تنافسوا الذهب والفضة فادع بهذه الدعوات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك والصبر على بلائك وحسن عبادتك والرضا بقضائك وأسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم .[1]

ومنها قوله « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع أمرنا بعيادة المريض واتباع الجنائز وإفشاء السلام وإجابة الداعي وتشميت العاطس ونصر المظلوم وإبرار القسم ونهانا عن الشرب في الفضة فإنه من يشرب فيها في الدنيا لا يشرب فيها في الآخرة وعن التختم بالذهب وركوب المياثر ولباس القسي والحرير والديباج والإستبرق.
رحم الله مولانا البراء بن عازب ، لقد كان مدرسة محمدية تمشي بين الناس ، تنشر من ضياءالتعليم النبوي بينهم ، وتحرص على

١. الاستيعاب لابن عبد البر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني

عبدالرحمن أمين السماء والأرض

بطاقة الصحابي :

اسمه : أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الزهري كان اسمه في الجاهلية -عبد عمرو- وقيل عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن. أمه؛ الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة . البداية والنهاية[١]

ولادته : بعد عام الفيل بعشر سنوات.

إسلامه : أسلم قديماً قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها . المستدرك للحاكم[٢]

اشتهر به : هو أحد العشرة المبشرة بالجنة ، وقد دعا له النبيﷺ أن يسقيه الله من سلسبيل الجنة . ويقول المؤرخون

١. (٧\١٧٨)
٢. (٣\٣٠٩)



كان تاجرا مجدودا في التجارة وكسب مالا كثيرا وخلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحًا فكان يدخل منه قوت أهله سنة.

وفاته : توفي سنة ٣٢ هجرية، ابن خمس وسبعين سنة بالمدينة. ودفن بالبقيع و صلى عليه حينها عثمان بن عفان رضي الله عنه

لما حانت لحظات الفراق الأخيرة ،

وأيقن خليفة رسول الله ﷺ الفاروق عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - أن الشهادة قد كتبها الله له وأنه مفارق أوصى بأن يكون أمر خلافة المسلمين بين أهل الشورى وسماهم فجعلهم عُثْمَانَ بن عفان، وَعلي بن أبي طالب ، وَطَلْحَة، وَالزُّبَيْرِ بن العوام ، وَسَعْد، وَعَبْد الرَّحْمَن بن عَوْف. وَقَال عَنْ ابنه عَبد اللَّهِ بن عمر : يَحْضُرُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ وَلَيْس لَه فِي الْأَمْر شَيْء .. "

فانبرى للأمر عبدالرحمن بن عوف وقال : "هل لكم أن أختار لكم وأنتقي منكم ؟ " قال علي: أنا أول من رضي فإني سمعت رسول

الله : يقول: «أنت أمين في أهل السماء وأمين في أهل الأرض .. »[1]

هذه المقولة في حقه ، جاءت من نقل علي بن أبي طالب ﷺ عن رسولنا ﷺ ، وعلي بها صادق ولا شك .. لتصور لنا قيمة أن يكون الإنسان أمينًا ، الأمين بمعنى أن يحفظ حقوق الناس ، فلا يظلمهم ولا يغتابهم ولا يفشي سرهم أو يفضح أمرهم، وكم من الضرورة أن يصبح المسلم أمينًا على الحق فلا يتنازل عنه ولا يقبل عنه عوضًا ، وأن يبقى أمينًا في كل حاله ، عندها فقط تزهر بنا الدنيا ..

هكذا كان عبدالرحمن بن عوف ، معروف في كل سيرته وعلى كل حاله ، فلما شاءت الظروف أن ينهض الأمين من مكانه ليتولى وضع الأمور في نصابها ، كان هذا الأمين هو عبدالرحمن بن عوف بشهادة المصطفى ﷺ وبنقل علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فأين الناس أشد فخرًا بشهادة من عبدالرحمن .

إن عبدالرحمن بن عوف قد كسب بأمانته رصيدًا لا يكاد ينفد، فأمر المسلمين واختيار خليفتهم أمر عظيم يحتاج إلى قيمة

---

١. كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني . رقم الحديث: ٣٠٢ (حديث مرفوع) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يَعْقُوبَ ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْمُعَلى الْجُرَيْرِيُّ، عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ، قَالَ لأَصْحَابِ الشُّورَى: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَخْتَارَهُ لَكُمْ وَأَتَفَصَّى مِنْهَا ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ أَنَا أَوَّلُ مَنْ رَضِيَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ ﷺ، يَقُولُ : " أَنْتَ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الأَرْضِ وَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ " .

عليا ودرجة خاصة من الثقة بكمية صدق الأمانة عند المرء، فهو لما ينهض بنفسه لاتخاذ قرار كهذا فهو لا ينهض لنفسه تشريفًا لها، إنما يُفعل خلق الأمانة عنده لمصلحة الأمة ، وهذا لا يفعله سوى واثق بما لديه من اتباع الحق وتحقيق العدل .

إن الأمانة صفة عظيمة حق لنا أن ننتهجها في حياتنا ، وأن نبادر دومًا على إعطائها تمام حقها ، ويكون ذلك في بادئ كل بدء بتعلمها وتدارسها . فما هي الأمانة ؟!

الأمَانَة لغةً:

الأمانة ضد الخيانة، وأصل الأَمْن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، فالأمانة اسم لما يُؤَمَّن عليه الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾[1]، أي: ما ائتمنتم عليه، وقوله:﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]

١. [الأنفال: ٢٧]

٢. [الأحزاب: ٧٢] من كتاب لسان العرب لابن منظور (٢١\١٣) و مفردات ألفاظ القران للراغب الأصفهاني (٩٠\١١)

معنى الأمَانَة اصطلاحًا:

الأمانة: هي كلُّ حقٍّ لزمك أداؤه وحفظه .[1]

وقيل هي: (التَّعفُّف عما يتصرَّف الإنسان فيه مِن مال وغيره، وما يوثق به عليه مِن الأعراض والحرم مع القدرة عليه، وردُّ ما يستودع إلى مودعه)[2]

يكفي المرء أن يتفكر مليًا في حال السماوات والأرض والجبال أن يحملوا الأمانة العظمى التي عرضها الله عليهم في قوله جل في علاه « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا »[3] إذ أن هذه المخلوقات قد أدركت تمامًا معنى هذا التكليف العظيم ، واستشعرت عظمة الله فيه ومراقبته لأداء هذه المهمة التي يصعب عليها أن تقف متزنة في أدائها فأشفقت منها ورفضت أن تحملها لدقة تفاصيلها وتشعب وظائف هذا التكليف حتى أن المفسر ابن كثير قد قال في تفسيره بعد أن سرد المعاني الجليلة والمختلفة لتفسير أهل السلف للفظ الأمانة في الآية الكريمة وأردفها بقوله : «وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها :

---

١. كتاب فيض القدير للمناوي (٢٨٨|١)

٢. تهذيب الأخلاق للجاحظ (ص ٢٤)

٣. سورة الأحزاب اية ٧٢

التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان »[1] .

وتتشعب التكاليف وتشمل كل ما في الحياة من أمر أعطاه الله للإنسان أو اختبره فيه وهو الله سبحانه الذي لم يترك الأمر عبثيًا عند الإنسان بل سخر له كل وسيلة تجعله مستقيمًا في تنفيذ هذه الأمانة ومتفانيًا في تنفيذها . فقد جعل الله الأمانة خلق أهل الصلاح وأول أهل الصلاح أمانة هم الأنبياء والمرسلين ، فقد اجتمعت بهم جميعًا صفات الأمانة في كل تفاصيلها فهذا خير المرسلين وخاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ﷺ قد عرف بالأمانة حتى قبل الرسالة فكان يشتهر في مكة أنه أمين على كل وديعة وحافظ لكل أمانة وصار يعرف بين الناس بقولهم "الصادق ، الأمين " . وقد تقرر من كلام الله سبحانه وتعالى أن نوحًا وهودًا ولوطًا وشعيبًا كلهم قد قرروا على أقوامهم فيما لا يدع مجالًا للشك أو التكذيب بقولهم (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)[2]، وقد كان نبي الله يوسف من أهل الأمانة والوفاء ، فلما كان في بيت العزيز وأرادت امراة العزيز ومن معها

١. «تفسير ابن كثير» (٤٨٩ / ٦)

٢. سورة الشعراء

أن يفتنوا يوسف عن نفسه مهددين إياه بالسجن وقف وقفة الأمين الحافظ لأمر ربه ، ومحافظًا على أمانة بيت تربى فيه فقال (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ)[1]، فارتضى لنفسه السجن والنزول عن الحرية والاستغناء عنها عن الوقوع في خيانة أمانة التكليف من الله وأمانة حفظ الأعراض والبيوت .

وليس ذلك بعجيب ، فمن كانت مهمته الكبرى أن يبلغ للناس جميعًا رسالة الله العظمى وأمانته الأزلية ، فلابد أن يكون قد اتصف بالأمانة وعرف بها حتى لا يكون أحد أحفظ منه للأمانة ولا أعلم منه بقيمتها وقدرها . فالله سبحانه وتعالى قد أنزل الأنبياء بأمانتهم مكانة عظيمة ، فجعلهم رسلا له ومنذرين للبشر كافة ، يبلغونهم حدود التكليف ، ويعلمونهم شروط الأمانة العظمى التي جعلها الله للإنسان . ولم يترك الإنسان على ذلك سدى ، بل جاءت الأمانة مغلفة بما يساعد على حفظها ويحث على أداء حقها بأكمل وجه بأن سخر الله سنن الكون وجعل الدستور الذي يرضاه فنارًا يهتدي به من شاء أن يبقى للأمانة مؤديًا ومحافظًا. فجعل لكل تكليف من التكاليف الدينية محفزًا وسببًا ورادعًا، وخص أهل الإيمان بالشهادة

١. سورة يوسف

لهم على أمانتهم فقال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)[1]، وبهذا كله يتيقن العاقل أن الأمانة تنزل صاحبها منزلة عظيمة، وترفعه مكانة عالية، فهي من شمائل الرجولة وخصال الصلاح والاستقامة.

وفي تفصيلات الأمانة تشعبات كثيرة ، لعل من أهمها ،

الأمانة مع الله .

لقد شرع الله الشرائع لعباده وقام بإنزال التكليف إليهم فيما تستقيم به حياتهم، فكانت الصلاة وجاء الصوم وأداء الزكاة لمستحقيها والصدق في حال المرء كله، وكما البر بالوالدين وحفظ الأعراض والابتعاد عن السرقة والغش وغير ذلك. فيكون الإنسان المتصف بالأمانة والباحث عنها مؤمنًا حقيق الإيمان، إذ لا يعطي الأمانة حقها إلا من أدرك أساس الأمانة وسببها وشمل بعمله تمامها إلا مؤمن موحد لله قائم بأوامره . فأداء الصلاة على وقتها والصيام وما به من امتناع عن كل ما يغضب الله ماديًا كان أو معنويًا وكما باقي أجزاء التكليف فهي جميعها تشترك بأنها ترتكز على أداء الأمانة لله ، فلا يجبرك أحد ولا يستطيع امرؤ أن يراقب حالك كله

---

١. سورة المؤمنون

إلا نفسك . إذا النفس مأمورة بأداء هذه التكاليف مع الله في سرها وعلانيتها كباب من أبواب أداء الأمانة . وحري ولا شك بمن حفظ أمانة الله مؤمنًا به وقائمًا بأمره أن يحفظ حق سائر المخلوقات لأن حفظ حقوقها من تمام أدائه لأمانته مع الله ، وفي الجانب الآخر فإن من ضيع حقوق الناس واستهزأ بأماناتهم فهو مضيع لجزء مهم من أمانته مع الخالق جل في علاه.

الأمانة مع الناس بمختلف درجاتهم .

إن للسلطان أمانة عظيمة يؤديها إلى رعيته في حفظه لحقوقهم ورعايته لشؤونهم دونما تقصير منه ولا تضييع، فهو مكلف بالاجتهاد في حفظ أمانة المال العام، وعليه أن يحفظ أمانة الرقابة على تنفيذ شؤون الرعية من أهل الاختصاص، ويتابع آليات هذا التنفيذ وجودته. ولا شك بأنه صاحب القرار في اختيار أهل الاختصاص، فهو بالتالي يحمل أمانة إسناد الأمر لأهله المستحقين، فهو إن قام بالتعيين على أسس غير أساس الاستحقاق فجعل للمحسوبية عنده بابًا وللقرابة بابًا وقام بتهميش أهل الاستحقاق فهو قد قام بخيانة كل فرد من أفراد الرعية وضيع حقهم في أن يدير أمورهم خير الناس وأحسنهم ، وهو قد فتح للفساد بتضييعه لأمانة الرعية أبوابًا،

فتخرج الأمور من نصابها وتتشعب المشكلة في كل أوساط المجتمع، ذلك لأن الأمانة هي رمانة الميزان في صلاح المجتمع واستقرار شؤونهم ، فمتى ضيعت انتشر الفساد كالجراد ينهش من المجتمع حتى لا يكاد أن يتركه إلا وقد أرداه وأنهاه .

وهنا يبرز الدور الكبير الذي وضعه عبدالرحمن بن عوف ﵁ على عاتقه في وقفته وعرضه للصحب الكرام أن يختار لهم وينصح لهم في اختيار خليفة المسلمين ، وهو هنا لم يزكي نفسه أو يكتنز الخلافة لنفسه مطلقًا ، بل وضع جانبًا كل الجوانب المؤدية لغير طريق الاستحقاق من القرابة والشعبية وغيرها واجتهد في إنزال الحق على خير جانب في الظرف والمكان المناسب. فالأمانة في جميع مواضعها شديدة الأهمية ، لكنها في التكليف أشد حساسية وأشد وقعًا ، فهي لا تؤثر بشكل مباشر على شخص بعينه، بل هي تؤثر بشكل حقيقي على كافة أفراد المجتمع المنتفعين بهذا التكليف، وبشكل غير مباشر مع كل التعاملات الأخرى في مجال التكليف وإسناد الأمر . لقد كان الخطب عظيمًا يومها ، واستحقت عظمة الأمر أن يتصدى له شخص بعظيم أمانة عبدالرحمن بن عوف .

وليست السلطة مقتصرة على الولاية فحسب ، فالقاضي في محكمته صاحب سلطان ومكلف بأداء الأمانة على أتم وجه ، فهو المكلف بالاستماع بكل عدل ونزاهة لكل أطراف النزاع ، وأن يكون حياديًا في كل حاله مع كل خلاف يحصل غير ملتفت إلى شخوص النزاع قربهم أو بعدهم ، سلطانهم أو ضعفهم ، غناهم أو فقرهم. وكذا حال الطبيب في مشفاه وبيده دواء المريض وشفرة العلاج ، فهو مؤتمن على أرواح الرعية و صحتهم ، فلا يجوز له أن يخرج عن طور الأمانة بتقصد الإهمال أو التقصير ، وليس له أن يرفض معالجة من هو مكلف بعلاجهم لأن هذا من تمام واجبه وأمانته، والمهندس في مشروعه ، المعلم بين تلاميذه ، محفظ القرآن بين طلاب العلم ، والخطيب على منبره ، وكل شخص مكلف من السلطان فهو في دوره صاحب سلطان ، يكلفه ولي الأمر بالأمانة بعد أن يختاره بأمانة لها ، وهو يؤدي الأمانة لمستحقيها لأنه ما جاء اختياره إلا أداة لتحمل هذه الأمانة .

وكذا حال الزوج مع زوجته ، والزوجة مع زوجها ، فالبيوت والأسر تحمل من الأسرار ما هو أمانة على الطرفين ، واجب أن يتم الاحتفاظ بها بداخلها ، فلا تخرج إلا ويدخل في البيت ما يفسده

وما يردمه . ولقد قال النبي ﷺ: «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها. »[1]. فهذه البيوت وما يدور في داخلها من أحداث ويتناقل بها من أخبار وحتى مما يكره الزوج من زوجته أو ما يحب ، لهو من الأمانات والأسرار التي وجب على الطرفين أن يحفظوها فلا تنتشر منهم لأي سبب أو لأي أحد . والأمانة على الطرفين داخل البيت متعددة ، فكما أن حفظ السر والصفات أمانة لابد أن تحفظ، فحتى العرض أمانة وكذا المال. ومن أمانة الرجل على زوجته أن يعطيها حقها فلا ينقصها ولا يحقرها ، وهي تنفذ أمانتها إليه بأن تحفظ له داره وتربي له عياله وتلتزم بالضوابط والشرائع التي هي مؤتمنة عليها .

وللصديق أمانة على صديقه ، بأن يدله على الخير ويعينه عليه، فليس الصديق من جاورك في معصيتك ، إنما هو الذي أهدى لك عيوبك ناصحًا محبًا للخير . والصديق يحفظ لصاحبه حقه من الوفاء ، فهو يحفظ له ذكراه فلا يغتابه ، ويحفظ له مواقفه فلا ينقص من فضله عليه شيئا ولا يحقر من فعله اتجاهه أمراً .

---

١. رواه مسلم

وفي المال أمانة عامة ولا شك ، وهي نوع مهم من أنواع الأمانة المادية فالمسلم مؤتمن على المتعلقات المادية التي ترتبط به، فهو يلتزم بأمانة حفظ المال العام والخاص فالموظف في أموال الدولة مسؤول عن حفظها ، والمستأجر مؤتمن بالمال والممتلكات التي يستأجرها وهو مكلف بأداء هذا الحق لصاحبه حسب الاتفاق .

والعلم له أمانة عظيمة ، فليس للإنسان أن يفتي فيما لا يعلم، سواء كان هذا في أمور الدين الشرعية أو أمور الناس الدنيوية ، لأن هذا يفسد على الناس حياتهم وآخرتهم . إن حفظ العلم لأهله وإسناده لأهل الاختصاص والمتعلمين من أهم أبواب أمانة العلم ، فيكون العلم صافيًا من الدنس ، بعيدًا عن عما يكدره من ألاعيب المدلسين و أخطاء الملفقين . فمن واجب المسلم أن يتعلم العلم قبل أن يعلمه ، وأن يحفظ للعلم هيبته فلا يتحدث بجهل ولا يتبع ما ثبت خطؤه .

فوائد أداء الأمانة .

استقرار المجتمع إن الالتزام بأداء الأمانة على أكمل وجه بين الناس، لا شك أنه يساهم بتشكيل مجتمع رزين القوام ، ثابت

ومستقر، حيث يستقر الفرد في هذا المجتمع لما يستشعره من أمان على نفسه وماله وعرضه لأن المجتمع حين يخلص كل فرد به في أداء تكليف الأمانة تتشكل في أطرافه جميع سبل الأمن والأمان ، وتفنى لديه مداخل الفساد والفوضى .

غياب الفقر لعل من أهم مسببات الفقر والجوع في المجتمعات، أن أموال الفقير تؤكل من كل ناحية دونما رادع يردع ضياعها أو مدافع يطالب بحقها ، فإن منع الزكاة له جانب من جوانب منع أداء أمانة الفقير لمستحقه ، وإن اختلاس أموال الضعفاء جانب مهم من جوانب إضعافهم ، وغير ذلك من إهدار المال العام ، وحجز الأموال وإيقافها عن واجبها في تسهيل أمور الرعية و إغنائهم . فما جاع فقير إلا من سرقة غني أو تقصير في أدائه لحقه . وما حرم طالب علم من إكمال تعليمه إلا لهدر في أمانة الأمة نحوه ، وهكذا في كل جانب من جوانب إضعاف الضعفاء وتجويع من لا حيلة لهم .

المساواة تحفظ الأمانة المساواة بين أفراد المجتمع ، حيث يكون المجتمع متساويًا في الحقوق والواجبات والعقوبات حين يؤدي صاحب السلطان فيه الأمانة كاملة ، فلا يُعفى عن سرقة الغني لأسباب قوته ، ويُعاقب الضعيف عليها لضعفه ، ولا يُحمى القوي لسلطانه على أخطائه وإن كثرت ، ويُحاسب عليها الضعيف تسلطًا وتجبرًا ، بل

تَحفظ الأمانة في المجتمع المساواة في جميع المجالات وتُحقق العدل الذي هو أساس ديمومة الدول ، ومما يُروى قولهم: "اللَّهُ يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً وَلَا يَنْصُرُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً " .

الأمانة على رفوف التطبيق

يكون الشعور باليقين عند الإنسان بأن ما كتبه الله له بسابق علمه وشديد لطفه آت له لا محالة ، وإدراكه أن حفظ الأمانات لن يخسره رزقًا أو يعدمه مالًا أو أجرًا ، يربي نفسه على ذلك في تعامله مع الأمانة المادية ، فيرعى الأمانة المادية للأفراد بشكل مخصص وللمجتمع بشكل عام في وظيفته وفي سوقه وفي تعاملاته المادية. ولا تتوقف الأمانة عند الجانب المادي مطلقًا ، بل هي حتى لا تنطلق منه في الأساس ، إنما تكون انطلاقة الأمانة عند الإنسان معنوية في حديثه وتعامله مع الآخرين بحفظ أعراضهم ، والتكتم على أسرارهم، وستر أخطائهم ، فالمسلم مكلف بأن ينبذ كل شعارات النفاق والتي أحد أعمدتها « إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » . فيكون التكليف بالأمانة ليس مجردًا من الوازع الديني مطلقًا ، بل الأمانة تبدأ من المنطلق الديني لتشمل الخلق الإنساني الحميد . ولعل النفس تتطلع لتقوية رصيد الأمانة بداخلها فتشرع في أمور رغبة بذلك منها :

١. تفكر بحال المغدور .

يكون الإنسان العاقل متفكرًا بحال غيره ، مدركًا أن الأيام دول وأن الدنيا متقلبة ، وهذا يدفعه لأن يتعقل في أداء الأمانة فلا يغدر بصاحبها لأنه نفسه معرض لأن يقع في فخ الغدر يومًا .

٢. أنت في أمانة دائمة .

أعطي الإنسان جسده وروحه ، فكان الجسد عنده أمانة له من الحقوق ما سوف يحاسب الإنسان عليها ، فهو مكلف بحفظ أمانة الروح بتهذيبها ، وحفظ أمانة الأعضاء بمنعها عن كل تحريم، واستخدامها بكل خير وجدت من أجله ، فكيف تستخدم أمانة أُعطيت إياها في غدر أمانة كلفك بها أخاك ؟!

٣. درب نفسك في الخلوات .

ينتج عن تدريب النفس في الخلوات ، تصرف اللاشعور في الطبيعة ، فمن حدث نفسه بالغدر وأكثر ، جاءت نفسه بالغدر في طبيعة حالها ، ومن أقنع عقله بالأمانة في الخلوات ، فتمسك بالمباح وتوقف عند ما يجب ، اعتاد نفسه على التربية فكانت مأمن غيرها .

٤. لا تبخس أمانة أبدًا .

« إن من يسرق رغيفًا ، يسرق مدينة » اجعل هذا شعارك في تأديب ذاتك ، وتعليم النشء من بعدك ، فإن خيانة الأمانة جرم كبير ، لا يتعلق كبر هذا الجرم بقيمة ما تم غدره ، بل هو جرم كبير في مصدره صغيرًا كان أو كبيرًا ، احفظ سرًا ، قم بأداء حق ، تعلم نفسك بعدها على حفظ العالم بأسره .

٥. الطفل الأمين .

لابد من تعزيز خلق الأمانة في الطفل في كل حين ، فتجهز العائلة للطفل تدريبات تعينه على تطبيق الأمانة وفهمها ، فتستأمنه على سر ، أو تحفظ عنده قطعة نقدية إلى أجل معلوم ، وتحثه على حفظ أسرار البيت ، فيكافئ على ما أحسن ، وينبه ويزداد الاهتمام في تدريبه عند التقصير .

٦. التذكير أساس التوعية .

لعل من واجبات الدول والمؤسسات، أن تبدع في تذكير الناس بخلق الأمانة ، فتتعاون جهات الإبداع في تصميم منشورات وملصقات، وتصوير مقاطع مميزة أو رسومات إبداعية تحث المجتمع على حفظ الأمانة وتبين له أخطار هدرها في المدارس، وفي

الجامعات وحتى على صعيد مؤسسات الدولة ، لتتبنى الدولة في كل عام شعار من شعارات الأمانة ليتشبع أفراد المجتمع معنويًا بخلق الأمانة ولتقود الدولة المجتمع إلى الاستقرار بتفعيل هذا الخلق .

٧. الإشباع المادي !

لا يقل دور الإشباع المادي في تفعيل الأمانة عن الجانب المعنوي، فلابد على الدولة والمؤسسات بأن تؤدي أمانة الناس إليهم، فتعطي لكل صاحب حق حقه ، وتؤدي إلى الناس ما تستقيم به أحوالهم وتعمر به بيوتهم ، فإن هي أدت أمانتها كدولة أو كمسؤولين في شتى المجالات ، اكتفى الناس ماديًا وعرفوا أن الدور الآن صار دورهم .

وللسلف الصالح مقال كثير في الأمانة ..

نذكر منها القول الجميل الذي نقله التاريخ لنا عن سفيان بن عيينة -رحمه الله- قال: «مَن لم يكن له رأس مال فليتخذ الأمَانَة رأس ماله»[١] .

و عن خالد الربعي -رحمه الله- قال كان يقال: «إنَّ مِن أجدر الأعمال ألا تُؤَخَّر عقوبته - أو أن يُعجَّل بعقوبته - : الأمَانَة تُخَان، والرَّحم تُقْطَع، والإحْسَان يُكْفَر»[٢]

---

١. (الدرر المنثور؛ للسيوطي: [٤/٥٠٠])

٢. (مكارم الأخلاق؛ للخرائطي: [١٧٢/١]).

لقد كان عبدالرحمن بن عوف صاحب أمانة يعرف بها ، ويشهد له بذلك خير الخلق أجمعين ، لما عرف عنه من فهم لحقيقة الأمانة وأدائها ، فقد كان محافظًا على إعطائها حقها في كل أحواله فصار أمين أهل السماء وأمين أهل الأرض ، ومن مناقب سيدنا عبدالرحمن بن عوف -رضوان الله عليه- ، قتال الملائكة معه " يوم أحد " حين فر الناس كلهم أجمعين ويحكي لنا الحارث بن الصمة أنه لما جاء إلى النبي ﷺ يدفع الناس عنه يوم أحد سأله رسولنا ﷺ: " أرأيت عبدالرحمن بن عوف ؟!" فقلت نعم رأيته وعليه جمع من المشركين فلما هممت أن أقبل إليه أحميه رأيتك يا رسول الله فانصرفت إليك ، فقال ﷺ « إن الملائكة تمنعه» .

يقول الحارث : فرجعت إلى عبد الرحمن فأجد بين يديه سبعة صرعى فقلت: ظفرت يمينك؛ أكل هؤلاء قتلت؟ فقال: أما هذا لأرطاة بن شرحبيل، وهذان فأنا قتلتهم وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره قلت: صدق الله ورسوله.

رحم الله مولانا عبدالرحمن بن عوف ، كان أمينًا مع ربه ، أمينًا في نفسه ، فحق على الله أن يرزقه الأمان في الدنيا والآخرة .

الصبر صبر عمرو !

بطاقة الصحابيّ

اسمه : عمرو بن الجموح هو صهر عبد الله بن عمرو بن حرام.

اشتهر بأنّه : أحد زعماء المدينة وسيّد من سادات بني سلمـة.

وفاته : قاتل في أحد مع النبي ﷺ ، حتى استشهد.



كان رضي الله عنه،

يجرّ نفسه جرًّا .. يتقدم إلى مسجد رسول الله ﷺ ، يحدّث نفسه بما يشغلها .. ويمشي وقد عزم على أن يطمئنّ بنفسه على ما يشغل باله ..

دخل الصحابي الجليل عمرو بن الجموح على النبيﷺ المسجد، وكان به عرج في رجله .. فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت حتى أقتل في سبيل الله، أتُراني أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة ؟؟! هذا إذًا ما كان يشغل باله .. يتفكر في حاله في الجنة ، تفكر الواثق بالله .. وقد شدّ الهمّة ، وشجّع نفسه على أن يشري رضى

الله ورسوله .. ولأنّ السلعة غالية .. كان الثمن أعزّ ما يملك الإنسان.. نفسه ، يضعها في سبيل الله ولإعلاء دين الله وكلمته ..

فكان الجواب شافيًا.. من الذي بعث للناس إمامًا وهاديًا.. قال رسول الله ﷺ : "نعم" ..

فما تأخر عمرو عن وعده، بل سارع ليكون من الركب الخارجين إلى المعركة يوم أحد .. وقاتل فيها ببطولة وبسالة .. حتى كتب الله له الجنة، ورزقه الشهادة .. فمر به النبي ﷺ وهو يقول : " إني أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة "[١]

بهذه الروح ، وبهذا الإيمان الواقع في القلب لدرجة أن اطمئنّ القلب به واستقرّ ، كان الصحابيّ الجليل عمرو بن الجموح قد أدرك حقيقة الإيمان بالله والتصديق بوعده ولذاك كان قد أمّل نفسه بالفرج ، وحدّث نفسه بالحل ، وقرّر أن ينطلق بالخطة المرسومة لينال الوعد الحق ، كان رضي الله عنه صابرًا ، متصبرًا . رزق الاصطبار في كل حاله فصار خلقه الصبر ، وجاء الإيمان إلى الصبر فزينه بتاج التوكل على الله ترقبًا للجزاء القريب الواقع لا محالة .

---

١. أخرجه أحمد في مسنده بسند حسن من كتاب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد.

الصبر لغةً:

الصَّبْـرُ نقيض الجَزَع، صَبرَ يَصْبِرُ صَبْـرًا فهو صابِرٌ وصَبَّار وصَبِيرٌ وصَبُور والأُنثى صَبُور أَيضًا بغير هاء وجمعه صُبُـرٌ. وأَصل الصَّبْر الحَبْس وكل من حَبَس شيئًا فقد صَبرَه، والصبر: حبس النفس عن الجزع[1] .

الصبر اصطلاحًا:

الصبر هو حبس النفس عن ما حرم الله، وحبسها على فرائضه، ومنعها من التسخط والشكاية لأقداره[2]. وهو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه[3]، وقريب منه تعريف ابن القيم الصبر بأنه: ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية[4] .

ولعظيم شأن الصبر ، كان الصفة الملازمة للأنبياء والمرسلين، والبقية الصالحة من خلق الله أجمعين ، فقد كان الصبر هو البذرة التي نتاجها خير كثير ، وجاء الوعد من الله بالجزاء الجزيل لمن أمسك الصبر وقنع به ، فقد ُوعِدَ التمكين في الدنيا والجزاء على

---

١. (الصحاح للجوهري: ص [٦٠٧]، لسان العرب لابن منظور [٧٣٤/٤])
٢. (رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: ص [١٨])
٣. مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني [٤٧٤]
٤. (الروح: ص [٢٤١])

الصبر بأعلى مراتب الجزاء يوم القيامة. وما ظهر رسول ولا نبي على قومه إلا وامتحن الله صبره ليضاعف أجره ويرفع شأنه ويعلي قدره. وللصبر مواطن عديدة لا يشملها الحديث لتشعبه في كل خلق جليل ووجوده في كل ظرف من ظروف الحياة .

الصبر عند الصّدمة الأولى .

يعلق المرء قلبه بالأمل ، ويحفزه دومًا على الكسب والرغبة بالمزيد ، فيستقر الإنسان على الخير الذي يأتي فلا يود مفارقته ويطمئن فؤاده إذا ما جانب الشر ، كأن الشر ليس بواقع به ، فلا تجد الإنسان العادي ينظر من حوله في أخبار الناس وأحوالهم ليدرس ما يقع به الآخرون فيكون له وعظًا وتذكيرًا بحال الدنيا التي لا تستقر على حال ، وتتقلب في كل الأحوال . غير أن العبد الصالح ، الذي يعرف قيمة الدنيا وشأنها ، ويدرك أنها عند الله لا تساوي جناح بعوضة أو أقل من ذلك ، وأنها إنما تتقلب بغير ثبات، فلا يدوم حالها لأحد لأنها جاءت دار اختبار مدركًا ومتيقنًا بقول الله « لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها »[1]و حاضر الذهن والعقل في النظر بمن حوله وترسيخ معنى العظة فيما يرسل له الله من رسالات مباشرة وغير مباشرة .

---

١. سورة البقرة ٢٨٦

لقد كان هذا هو حال الصالحين فمن المشهور أن خاتم الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ قد نقش عليه قوله "كفى بالموت واعظًا يا عمر " فكان يحمله في كل وقت وينظر إليه قبل أن تدلهم الأمور، وعمر بن عبدالعزيز ، هو ثاني العمرين في العدل والمساواة كان قد قال لمستشاره الخاص " عمر بن مهاجر: "إذا رأيتني ضللت -أي أخطأت- الطريق فخذ بمجامع ثيابي ، وهُزني هزاً عنيفاً ، وقل لي: اتقِ الله يا عمر فإنك ستموت .

فمن كان قد اتخذ الوعظ في حياته صاحبًا ، سهل الله عليه الصبر في الصدمة الأولى، فكان لا يرهب قلبه الخوف من المجهول، ولا يفزع القلب من تغير الحال المفاجئ ولا الابتلاء الذي يأتي على حين فجأة، لأنه كان قد رسم لنفسه الطريق، وعلم أن الطريق يمر بالابتلاء، ويكون قد قام بتجهيز قلبه لأي واقعة، فيصبح القلب مطمئنًا لا يتقلب ولا يتغير في الابتلاءات وتجده صابرًا عليها منذ أول وقعها في صدمتها الأولى .

والقلب على ما تدربه وتجهزه، فإن كان القلب مستقر الإيمان، مطمئن النظرة وموقن الثقة بالله، كان قويًا قادرًا على استيعاب الابتلاء في لحظة وقعته الأولى، فمن جاوز الصدمة الأولى من الابتلاء مصطبرًا ، رزقه الله الصبر وسهل عليه الأمر كله .

الصبر على الابتلاء .

إن فهم ثقافة الإبتلاء لهو أمرٌ مهمٌ في سبيل تحصيل الحياة التي يعيش بها المرء مطمئن البال ، مرتاح القلب ، لأن الإنسان خُلق ضعيفًا يحتاجُ إلى ما يسنِدُ ضَعفه ، وهذا أحد الأسباب التي جعلت الأسرة أمرًا مقدسًا ، وجعل المجتمع عنصرًا شديد الأهمية في حياة الإنسان لأنه يعطيه السند والقوة التي يحتاج إليها . ومن هنا كان ترسيخ ثقافة الابتلاء أمرًا مهمًا للمرء لأنه حين يدرك أن ما يحدث له جاء بداية الابتداء جراء ما حصل منه من تقصير وليس افتراءً عليه ، فإنه لن يشعر بالحيف ولا بالظلم ، وحينها يبدأ العاقل في البحث عن تقصيره ليجعله مجبورًا سليمًا كاملًا .

والأمر المهم بل لعله شديد الأهمية هو أن يجزم الإنسان أن الابتلاء ما نزل به إلا رحمة ، فإن هو صبر وفهم ، أخذ تمام الإحسان في صبره على الابتلاء لينال خير الدنيا والآخرة . فأما خير الدنيا فإن الإنسان لا يمنع من خير يريده إلا لأن الله قد أنعم عليه بخير له وأحسن ، وأنه ما منع من شيء إلا لمعرفة العزيز الجليل بأنه منع منه برحمة الله به ، فالمسلم أمره له خير في كل أحواله ، ومن هنا جاء في الأثر " لو علم الناس الغيب لاختاروا الواقع " .

الصبر على الواجب والمنهي .

جاءت الشريعة وهي تحمل بين ثناياها الحياة كما يجب أن تكون، موضحة الأحكام والتكاليف وجاعلة تلك الأحكام والتكاليف تناسب قانون الحياة العام ، حيث هي تشمل كل المخلوقات والسنن الكونية ، فكلها لها خالق واحد ، مكون واحد ، وضع هذا الخالق القوانين بشكل واحد لتناسب الجميع وتسير به كل السنن الكونية والمخلوقات التي من صنع الخالق الموجد بشكل يسير وواضح ، فإن الواجبات التي تترتب على الشمس بخروجها من المشرق كل صباح علينا ، في زاوية معينة ، ووفق بعد معين ، وأن يتبعها القمر ، وتغوص بينهما النجوم ، وكذا سير الكائنات من حولنا ، وصولًا إلى الواجبات المتحتمة علينا كأفراد من مخلوقات الله في اليوم والليلة، وعلى مدار الشهر والعام والعمر . هذه الواجبات والأمور التي يجب أن يأتيها الإنسان أو يبتعد عنها وضعت ضمن دستور الحياة الواحد، فهي متكاملة يكمل بعضها بعضًا ، يتأثر كل واحد منهم بالآخر تأثرًا واضحًا ، فمتى جاء التنفيذ سارت الحياة بهية ، ومتى اختل التوازن؛ فقدت الحياة زخرفها وضاقت بقوانين المخلوقات الموضوعة التي لا تدرك التفاصيل وأدق من التفاصيل في كل مكون من مكونات الحياة .

فالشمس والقمر والنجوم مسخرات لأمر الله ، أما الإنسان فقد جاء مكرمًا بالاختيار والعقل ، ولذاك جعل الله له تسخير ما حوله من الكائنات والسنن ، فجاءت تساعده وتعيينه على الاختيار الصحيح ، وهو الاختيار الذي مُنحه كاملًا ، فهو يختار ما يريد ويميز بين الأمور وينتقيها وما كان مكتوباً عليه يوم ولادته ما هو إلا اختياراته التي انتقاها بنفسه ولكن سبق العلم الغيب بما سوف يحدث ، فكتب عليه لأن الله لا ينتظر وقوع الأمر ليعلم به ، فهو العالم بما كان وبما سيكون وبالخافي والظاهر . وحين يأتي الاختيار يصبح على الإنسان أن يصطبر على اختياراته ، وأن لا يجزع أو يفزع ، بل أن يواصل العمل بالواجبات ، مقتنعًا بأنها خير وسيلة من خالق الأرض والسماوات ، وأن يصبر عن المعاصي ويحاربها ، فما إن وقع بها إلا استغفر ، وما إن مكن بها حتى تركها مختارًا بقوة الإيمان بالله . وإن هذا الصبر على الواجب والتصبر على البعد عن الشهوات المحرمة وتعويضها بما هو مباح لمن تمام الخضوع للخالق المالك لكل شيء ، فيجزى صاحبها خير الدنيا ، ويعطى ما صبر عليه وأكثر في الحياة الباقية.

الصبر على النصر .

الصبر لا يأتي فقط من على المحن والابتلاءات ، بل إن الصبر العظيم يكون عند النصر ، فالإنسان عند المحن لا يملك من أمره إلا أن يصبر أو يجزع ، فإن جزع خسر كل شيء ، وإن صبر ربح جزاء الصبر وعاقبته ، ولكن المرء عند الانتصار يكون التكبر والاستمتاع وغير ذلك من الأحوال متاح له ، لكنه إن صبر على النصر وعمل بأخلاق النصر كان هنا صابرًا على النعمة فكم من صاحب نعمة حُرِمَها لما تكبر بها على من أعطاه إياها وحسب أنها ما جاءت إلا من صنع يده ، وليست قصة (قارون مصر) بغريبة على القارئ حين نسب ماله وكنوزه لنفسه وقال مفتخرًا أنها ما جاءت من فضل أحد إلا من كسب يده ، فخسف المانح المعطي له ما أعطاه به فصار ذكرًا وأصبح أثرًا بعد واقع .

إن الصبر على النصر من أعلى مراتب الصبر ، لأن الإنسان في وقت النصر يصيبه من النشوة ومن الاعتزاز بالذات ما يصيبه، ولكن العاقل يؤدب نفسه ويمسكها عن ما فيه ضرر ، فالنصر لا يدوم لأحد ، ولكن الأيام دول . فالصبر على النصر والتأدب وقت النصر يعطي الإنسان بعدًا مهمًا في معاني الصبر وينمي النفس على

الصبر في عزها واستسلامها ، في السراء والضراء ، ومن استطاع تعليم نفسه الصبر ، لا يقهره شيء ولا تفوته غاية .

أدوات تقوّيك على الصبر

أولًا : استحضار الماضي الشخصي .

كل إنسان في هذه الدنيا يتعرض في حياته لمواقف عديدة، فهو يمتحن ويصيبه الابتلاء في كل حين ، فحين يبدأ الإنسان رحلته مع الابتلاء والصبر عليه ، لابد عليه أن يدرس كيفية استحضار الماضي الشخصي له ، فإن الابتلاءات التي تأتي للإنسان لن تكون هي الأولى بل هي متتابعة تفاجئه في كل حين ، فإن القوة التي تلزم المرء للصبر على الابتلاء والثقة على تجاوزها تكون في استحضار الابتلاءات التي قد مرت بالإنسان مسبقًا ثم تغلب عليها وتجاوزها وهو الذي ظن أنها مهلكته .

ومن هنا يُصّبر الإنسان نفسه ويتذكر قول الله "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يسرًا"[1] وقد قال أهل التفسير اللغوي أن اليسر جاء نكرة لم يُعَرف ، وجاء العسر معرفًا بالألف واللام ، لتدل هذه الآية أن العسر المُعَرف يواجهه يُسرين ، ومحال للعسر أن يغلب

١. سورة الشرح اية ٥

يسرين . إذًا إن الظروف التي قد ساعدت الإنسان ووفقته على تجاوز المحن ، والأدوات التي استخدمها ، والتوفيق الذي صاحبه على تجاوز الابتلاء السابق ، كلها حاضرة ومؤكد أنها سوف تعينه على تجاوز كل ابتلاء إن هو صبر على ذلك .

ثانيًا : الاعتبار بالمواقف والشخصيات التاريخية .

لعل من أدوات التصبر ومحاولة التمسك بالصبر على الابتلاء والواجب والنهي والصبر على النصر مجتمعة تأتي بنظر الإنسان إلى المواقف التاريخية والرموز المشرفة في واقع هذه الأمة ، فالناظر لرسول ﷺ ، وهو يدخل على مشركي قريش أرض مكة ، منتصرًا عليهم ، فاتحًا لمكة ، طوافًا بالبيت الذي كانوا قد منعوه منه قبل حين ، فإذا بشخصه العظيم ﷺ يقف وقفة الثابت المنتصر ، الصابر على النصر فيعفو عن المسيء ويسقط حقه الذي كان قادرًا على استرداده من طواغيت قريش ولكنه تعامل بالإحسان وقام مصطبرًا على النصر ونشوته وقال " اذهبوا فأنتم الطلقاء " .

ومواقف التاريخ في الأزمات التي أصابت الأمم كثيرة ، ولكن موقف الأمم الصابرة العاملة كان دومًا هو ما يسبق إلى إعادة

إحياء الأمم ، فقد وقفت الأمة متحدة في وجه الردة وانتصرت لنفسها فانتشر الدين في العالم وفتحت لهم البلاد أبوابها وسخرت لهم الأرض ينتفعون منها وينشرون بها دعوتهم السماوية ، وكذلك كانت الأمة الألمانية حين تم تدميرها فنهضت بالعمل ، واليابان هي الأخرى نهضت بالعلم والصناعة ، فقد صبرت ألمانيا على ظروفها، وقد تصبرت اليابان على دمارها ، وكثيرة هي الوقائع التاريخية التي تدفعك للإيمان الحقيقي بأن كل المصائب زائلة لمن يصبر ويسعى بصدق .

فعلينا أن نقرأ التاريخ بعين الأمل ، وأن نبصر في المواقف التي نتدارسها وليس أن نكتفي بالتمتع من سرد القصص وأحاديثها .

ثالثًا : الثقة بالاستخلاف

لقد صدق الله وعده مع موسى وقومه فاستخلفهم على فرعون الزمان ، ولم يخب ظن يوسف بربه - وحاشا لله - فجعله عزيز مصر وأخرجه من السجن معززًا مكرمًا ، وكذلك كان الاستخلاف مصير السائرين على نهج الله والقابلين بالصبر فقد استخلف الله محمّدًا خاتم الأنبياء والرسل ﷺ على من ظلمه ، ومَكّن لأمته من بعده ليكونوا خلفاء في هذه الأرض مصداقًا لقول الله " (٤٥) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا * يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا * وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)"[١] .

فإن كان الصابر قد وعد بالاستخلاف والتمكين ، فأي شيء آخر يَلزمه للإيمان بأن الله ناصره؟ لقد وعد الله الصابرين بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهنا إذاً تكتمل الأدوات التي يحتاجها الإنسان ليصيب الصبر ويثبت عليه ، فهو بالصبر قائم بواجبه ، مستعين على ما يحسن حاله ، ومكمل لسنن نصرة الله للصابرين الموعودين بالاستخلاف والتمكين .

هذه المعاني مجتمعة ، وقف بها عمرو بن الجموح وقفة الثابت المتأكد من وعد ربه ، وعلى هذا قاتل يوم أحد حتى قبله الله من أهل الجنة ، ليُرزق ما أراد وما طلب ، لقد أقبل صابرًا على ما أصابه ، قانعاً بأنه يذهب إلى صاحب الملكوت ومغير الأحوال، عارفًا تمام المعرفة بعاقبة الصبر ، لم يتزعزع .. لم يتردد .. ذهب بعرجته إلى الجنة ، ليمشي بها صحيحًا معافى !

---

١. « سورة النور»

ويطيب الحديث إذا جاءت الاستزادة من حكمة ابن القيم ، يقول ابن القيم : " فإنَّ مفاجئات المصيبة بغتة .. لها روعة تزعزع القلب، وتزعجه بصدمها، فإن صبر الصدمة الأولى انكسر حدها، وضعفت قوتها، فهان عليه استدامة الصبر، وأيضًا فإنَّ المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه، وهى الصدمة الأولى، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطَّن لها – أي القلب - وعلم أنَّه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار، وفي السيرة أن المرأة لما علمت أنَّ جزعها لا يجدي عليها شيئًا؛ جاءت تعتذر إلى النبي كأنها تقول له قد صبرت، فأخبرها أنَّ الصبر إنما هو عند الصدمة الأُولى " [١].

تنمية الصبر في تعاملك .

يبقى التفكر في أحوال أهل الفاقة والتعلم من مصائب الآخرين وسيلة مهمة من وسائل تنمية الصبر عند الإنسان ، فمتى يرى الإنسان نفسه في حال غيره ، يدرك أن الدنيا تقلب الناس فيها بين النعم و المحن ، ومن طبيعة الناس أن يصبروا فيجعل هذا التفكر الإنسان مقنعًا لذاته على أهمية الصبر وقيمة أن يبقى متحليًا بالصبر في كل موطن لمصيبة أو مشكلة .

---

١. (عدة الصابرين: ص [١٢١])

« اصبر وما صبرك إلا بالله ! »

هذا الشعار الرائع ، ليكن منذ هذه اللحظة شعارًا لك .. يميز خُلُقَك ، ويغطي قلقك ، ويغلف تعاملاتك ، فتكون به من الذين أدركوا وفهموا مقصدًا من مقاصد الحياة وهو أن تصبر على سوء حالها وتقلب أوضاعها ، ولعلك بتدريب نفسك تتقوى وتتمكن شيئًا فشيئًا :

١. خالف نفسك في الأمور الصغيرة .

إن مخالفة هوى النفس في المباحات الصغيرة ، كأن تمنعها من طعام تشتيه في بعض الأحيان أو أن تحجب عنها طلبها في ملبس تريد اقتناؤه أو أحد متاع الدنيا الذي هو من كماليات العيش له تدريب مهم للنفس على الصبر في الرخاء .

٢. اقرأ كتابًا كبيرًا.

لعل المجلدات الكبيرة التي تحمل من الصفحات العدد الضخم فيها محيط من المعلومات والأفكار المختلفة ، منها ما تحتاجه ومنها ما قد تقل حاجتك إليه ، لكنك في إلزام نفسك بين الحين والآخر على أن تكمل كتابًا ضخمًا من أول الغلاف إلى خاتمة الكتاب لتدريب للنفس على الصبر على ما لا تريد أو ترغب .

٣. دون كل مصيبة ، ولا تنسَ إغلاق القصة بالحل .

المصائب في حياتنا يغلق معظمها بما هو خير ، والباقي يغلق بخير لا نفهمه إلا بعد حين ، اصنع لنفسك كتابًا تكتب فيه ما تلقيه عليك الدنيا من مصائب ومتاعب ، واترك في آخر كل مصيبة مجالًا لتدون الحلول التي تواردت لإخراجك من هذه الأزمة ، وسيكون من الجميل أن تكتب لاحقًا وبفهم كم من الخير الذي لولا تلك المصيبة ما أصابك .

٤. ازرع حديقتك .

الزراعة هي مهارة من مهارات إحياء هذه الأرض ، وفيها من السمات الكثير ، ولعل من أدق سمات المزارعين الصبر وتكرار المحاولة، إن الزراعة تجعل الإنسان صبورًا على بذرته لتنمو ، وصبورًا على نموها أن يكتمل ، وصبور على الاكتمال أن يثمر طيبًا حلوًا .

٥. خلوة التفكر .

يغوص الإنسان في النعم من أخمص القدمين وحتى هامة الرأس ، يتلذذ بالنعم دونما يدري ويشعر ، فإن عود الإنسان نفسه يوميًّا على التفكر بنعمة واحدة من النعم التي ينتزعها انتزاعا من

عادته اليومية ليتذوق قيمتها ، سيكون بهذا الفعل إيجابي القلب والفكر ، ليتصبر بهذا القلب والفكر على كل مصيبة تصيبه .

ولحلاوة الختام نعود لبطل الصبر ومنهله ، لنتدارس قصة إسلام عمرو بن الجموح وهي قصة عظيمة من قصص الكرامة التي لم يقبل عنها عوضًا ، فقد كان من أشراف بني سلمة، فلما أسلم فتيان بنو سلمة ومنهم معاذ بن جبل و ابن عمرو بن الجموح (معاذ بن عمرو) رضوان الله عليهم أجمعين ، أجمعوا أمرهم على إهانة الإلهة الصنم الذي اتخذه شريف أشرافهم عمرو بن الجموح وغيرهم ممن بايعوا يوم العقبة .

فأجمعوا أمرهم وأقبلوا على الصنم ليلًا ، فأخذوا الصنم المعظم يلقونه في حفرة يضع الناس بها أعذارهم وفضلاتهم ، فإذا ما أصبح الصباح جاء - شريف بني سلمة - عمرو بن الجموح يطرد الأذى عن صنمه وينظفه ويغسله ، وتكرر الأمر مرارًا ، حتى أقسم على صنمه أن يطرد السوء عن نفسه إن كان إلهًا بحق .

فلما جنّ عليه الليل ، وضع السيف في عنق صنمه منتظرًا منه ردة الفعل على الإهانات المتكررة ، وكأنه يريد أن يثبت لذاته أن هذا

الرب لا ينفع حين طلب ولا يطرد من الأذى شيئًا عن ذاته فكيف يطرد عن غيره . ولم يتأخر فتيان بني سلمة عن ذاك الصنم ، بل أقبلوا عليه وانتزعوا السيف منه وربطوا به كلبًا ميتًا وقفذوه على رأس في بئر من آبار بني سلمة .

فلما أصبح الناس أقبل عمرو بن الجموح ، وهو رجل من أهل العقل ، فنظر إلى صنمه منكس الرأس مربوطًا بالجيفة . فعزم أمره وثبت قلبه وجاء مسلمًا لله خاضعًا لرسالته التي تدعو إلى كل كرامة وتحفظ كل إنسان وتعطي الإنسان التكريم الذي يستحقه .

عمرو بن الجموح اكتسب الصبر ، وبه حاز على الشرف و لعله بالصبر جاءته رجاحة العقل لتجعله سيد من أسياد قومه ، فمن لنا بغير عمرو بن الجموح - رضوان الله عليه - قدوة نقتدي بها لنصبر أنفسنا كما صبّر نفسه ، فنجزى على صبرنا إحسانًا و على إيماننا بحسن العاقبة أحسنها . رحم الله عمرو .

لا أعدمك الله حُلماً أحلّك

في قريش هذا المحل

بطاقة الصحابي

اسمه : معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، القرشي الأموي المكي، يكنى بأبي عبد الرحمن .

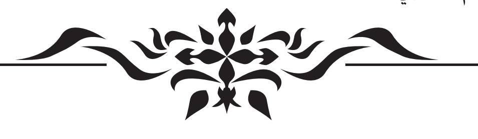
إسلامه : أسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة . (وهو في الثامنة عشرة من عمره)[1].

أسلم قبل أبيه في عمرة القضاء ، وبقي يخاف من الخروج إلى النبي (وبقي يخاف الخروج إلى النبي من أبيه أو وبقي يخاف أن يخرج إلى النبي من أبيه) ﷺ من أبيه، وأظهرإسلامه يوم الفتح .[2]

اشتهر به : أميرالمؤمنين، صحب معاوية رسول الله ﷺ وكتب

١. [المنتظم ٢ / ١٣٧]

٢. [تاريخ الإسلام للذهبي ٣ / ٦٤]



الوحي بين يديه . (ابن كثير ، وقيل أنه كان كاتب رسول الله ﷺ فقط) قال عنه عمر بن الخطاب أنه : « كسرى العرب »[1].

وفاته :مات معاوية في رجب سنة ستين للهجرة ، وعاش سبعاً وسبعين سنة - رضي الله عنه وأرضاه - ، ثم دفن في دمشق بمقابر باب الصغير . وعليه الجمهور فالله أعلم.[2] .

كانت أمه تلاعبه في مكة ، تحمله بين ذراعيها وتنشد الأناشيد وتحكي له عن أساطير العرب ، فقيل لها « تربينه ليكون سيد قومه » ..؟! قالت والعزة تملؤها : ..« أثكله إن لم يكن سيد العرب !».. من هنا انطلقت تربية الأم هند بنت عتبة رضي الله عنها لابنها الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو الذي كان قد بشر بالملك قبل ولادته فيما يروي العرب في قصصهم، حيث أن كاهنًا من اليمن قد قال لأمه هند «انهضي، غير رسحاء، ولا زانية، وستلدين ملكا يقال له : معاوية .. »[3] .

---

١. [أسد الغابة ٥٤١/٤]
٢. البداية والنهاية ٧٨١/٦ ، سير أعلام النبلاء ٣ / ١٦١
٣. [كتاب المعجم الكبير للطبراني - مسند النساء].

وبالفعل، و بعد الخلافة الراشدة، وتنازل له سبط رسول الله ﷺ حين قرر بتنازله أن يجمع الأمة ويوحدها، فصار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، والذي كان يقول للناس يوم صارت له الخلافة : «ما أنا بخيركم وإن منكم لمن هو خير مني ، عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما من الأفاضل ، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية ، وأنكاكم في عدوكم ، وأدراكم جلبا لمنفعتكم.»[1].

وبهذا المنطق ، وبهذه الحنكة السياسية والحكمة في إدارة الأمور والسيطرة على رغبات الناس أو الشعوب وتلبية طموحاتهم كان معاوية يتعامل بسياسته العجيبة وهو الخليفة على المسلمين، حتى إذا جاءت إليه رسالة من عبدالله بن الزبير وكان في المدينة، وله مزرعة يتجاور بها مع مزرعة تعود إلى الخليفة معاوية وكان حينها معاوية في دمشق، غير أن رجالا يعملون عند معاوية في مزرعته يدخلون في كل يوم على مزرعة عبدالله بن الزبير ويتجاوزون على حدودها وحصادها ، ولعل ذلك أغضب ابن الزبير فكتب لمعاوية في دمشق وقد كان بينهما عداوة قائلاً في كتابه :

---

١. [البداية والنهاية / الجزء الثامن لابن كثير]

من عبد الله بن الزبير إلى معاوية

(ابن هند آكلة الأكباد)

أمّا بعد ..

فإنّ عمالك دخلوا إلى مزرعتي ، فمرهم بالخروج منها ،

أو فوالذي لا إله إلا هو ليكوننّ لي معك شأن !

هنا وصل كتاب ابن الزبير إلى معاوية، وهو يومها الخليفة، فقرأه..

ثم نادى يزيدَ ابنه ، وقد كان معاوية يتحرى الفرص لتعليم يزيد وتدريبه فقال ليزيد : اقرأ ما كتب لنا ابن الزبير .. ثم انظر ما تظننا نجيبه ؟!

بلغ الغضب من يزيد مبلغه من قوة الألفاظ في رسالة ابن الزبير ، ورأى أنه لا يجوز لأحد الرعية أن يتحدث إلى الخليفة بأسلوب كأسلوب هذه الرسالة واختصر رأيه بقوله : « أرسل له جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتيك برأسه .. »

فقال معاوية : بل خيرٌمن ذلك ..« زكاةً وأقربَ رُحماً » .

فكتب رسالة إلى عبد الله بن الزبير يقول فيها :

من معاوية بن أبي سفيان إلى عبد الله بن الزبير

(ابن أسماء ذات النطاقين)

أما بعد ..

فوالله لو كانت الدنيا بيني وبينك لسلّمتها إليك ولو كانت مزرعتي من المدينة إلى دمشق لدفعتها إليك، فإذا وصلك كتابي هذا فخذ مزرعتي إلى مزرعتك وعمّالي إلى عمّالك؛ فإن جنّة الله عرضها السموات والأرض !

أرسلها إلى المدينة المنورة .. جعل عنوانها بخير أسماء عبدالله بن الزبير إذ بدل بإساءة عبدالله بن الزبير في هند ، الإحسان إلى أسماء بنت أبي بكر - رضوان الله عليهم - وهي أم عبدالله.. أرسل الرسالة إلى المدينة..مع الرسول الذي جاء بها، وكان قادرًا على أن يبعث بدلًا منها جيشًا جرارًا .. أو أن يرسلها في جيش جرار ، ليخاف من هم دون عبدالله بن الزبير لكنه ما أراد بها تخويفًا ..بل خاطب بها عبدالله بن الزبير ، خاطب عقله وقلبه وحكمته ..

وصلت الرسالة .. وقرأها عبدالله بن الزبير فبكى مما كتب فيها حتى بلّ لحيته بالدموع .. ثم ما لبث أن سافرإلى معاوية في دمشق وقبّل رأسه ، وقال له :«لا أعدمك الله حُلماً أحلّك في قريش هذا المحل»[1]

تحولت إذًا العداوة إلى محبة ، واستقر الأمر بلا فتنة أو سفك دم، هي تلك الشعرة التي كان يضعها معاوية بينه وبين الناس ويقول هي لا تنقطع فإن شدوها أرخيتها وإن أرخوها شددتها ، كان رضي الله عنه يستخدم حكمته ودهاءه في تسيير أمور الناس ، وكان حلمه يسبق على أمره ، فقد كان حلمه من حلم العزيز الذي يقدر على العقوبة فيعفو ويصفح ويبدل الإساءة إحسانًا .

الحلم لغة .

الحلم خلاف الطّيش . اللغوي ابنفارس الحلم (بالكسر) الأناة والعقل وهو نقيض السّفه وجمعه أحلام وحلوم .[2]

---

١. (القصة ينقلها الرواة ولا سند واضح لها غير أنها تتطابق مع قول السلف في حلم معاوية وحكمته، نقلت بعد محاضرة للشيخ صالح المغامسي وهوعضو هيئة التدريس بكلية التربية بجامعة طيبة، وإمام وخطيب مسجد قباء (وإمام مسجد قباء وخطيبه) ، وأمين لجنة الأئمة بالمدينة النبوية ، ومدير عام مركز بحوث (ومدير عام لمركز بحوث) ودراسات المدينة المنورة سابقاَ ، ومُفسر وعالم وأديب).

٢. الجوهريّ

أما عن الحلم فتعريفه اصطلاحًا :

«الحلم أجمل ما يكون من المقتدر على الانتقام ، وهو يشتمل على المعرفة والصّبر والأناة والتّثبّت ، ومن يتّصف به يكون عظيم الشّأن ، رفيع المكان ،محمود الأجر ، مرضيّ الفعل ، ومن أجل نفاسته تسمّى اللّه به فسمّي حليما »[1].

إن الحلم حجاب الآفات ومجلب الخيرات وتقريب البعيد وحفظ القريب من الأذى والتعريض ، فالمتمسك بالحلم يكون في حماية عن الوقوع في الزلات التي تجلب الآفة وتوقعه في المشكلة، لأن أساس الحلم التأني في اتخاذ القرار وانتقاء الكلمات واختيار القرارات ، فلا يشوب الإنسان في التأني آفة العجلة ولا يفجعه الغضب والحزن وغير ذلك ، وفي التأني خير وفي الصفح تقريب للبعيد وحفظ للقريب من أن يساء إليه أو يسوء فهمه، كل ذلك في الحلم ولذاك يعتبر الحلم سيد في مكارم الأخلاق ، له المنزلة العظيمة والدرجة الرفيعة .

---

١. . ابن حبّان رحمه اللّه تعالى روضة العقلاء(ص٣٠٨)

أنواع الحلم

١. حلم الله .

إن المولى جل في علاه اتصف بالحلم والحليم اسم من أسماء الله وصفة الحلم من صفاته ، فكم من الأخطاء والمعاصي والزلات ونكران النعم يرتكبها ابن آدم ومع ذلك تجد رباً غفوراً حليماً منعماً. ولولا حلم الله بعباده لكان الأمر شديد الصعوبة ، فالله هو القادر على عباده ، الخالق لهم والموجد لمسببات بقائهم ، فإن هو غضب فإنه مالك لأمرهم و عنده سبحانه كامل الاستطاعة على نزع أسباب بقائهم أو حتى الذهاب بكل من أساء منهم . لكنه سبحانه وتعالى وصف نفسه بالحلم وجعله اسمًا من أسمائه لعظمة هذه الصفة حتى أن النبي ﷺ قد أشار في عدة مواقف أن الله يحب الحلم في عباده، ليتصف الناس بالحلم وليتقربوا به إلى الله، يؤكد ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما - ، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلأَشَجِّ ، أَشَجُّ عَبْدِ الْقَيْسِ : « إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ ، وَالأَنَاةُ» .

٢. خلق الأنبياء وحلمهم .

ولما كان الحلم صفة من صفات الله ، وخلقًا ارتضاه لعباده الصالحين المقربين ، كان الأنبياء والرسل هم أولى من يتصف بهذا الخلق ويتخلق به ، فنجد أن كتب السير حبلى بقصص الحلم من الأنبياء عليهم السلام ويكتمل ذلك في خاتم الأنبياء والمرسلين وهو الذي له سيرة تروى ومثال يحتذى به وقدوة ينقاد خلفها كل حليم، فيما يرويه أنس بن مالك ﵁ أنّه قال : كنت أمشي مع رسول اللّه ﷺ وعليه برد نجرانيّ غليظ الحاشية فأدركه أعرابيّ فجبذه بردائه جبذة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول اللّه ﷺ قد أثّرت بها حاشية البرد من شدّة جبذته ؛ ثمّ قال : يا محمّد ، مر لي من مال اللّه الّذي عندك ، فالتفت إليه رسول اللّه ﷺ ثمّ ضحك ثمّ أمر له بعطاء . صحيح البخاري .
ولعل من أعظم درجات الحلم في سيرته الشريفة ما ورد في حديث ملك الجبال إليه ﷺ ، حين عرض نفسه يوم العقبة فلم يجبه من قومه أحد ، فسار مهمومًا ﷺ ، فناداه جبريل ومعه ملك الجبال قائلًا: يا محمّد ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النّبيّ ﷺ : »بل أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئا « .
فأي حلم أشد من حلمه ، وأي طريق يسير به من أراد أن يتخلق بالحلم سوى هذا الطريق ، فهنا تسانده القوة العظمى والتأييد الرباني

الأكبر، بأن يسخر له المخلوقات ليزيل عنه الهم الذي نزل في قلبه، لكنه بحلمه وخلقه العظيم ، يرجئ القوم ويعفو عنه عفو المقتدر .

وكان الحلم خلق أبينا إبراهيم من قبل هذا فيما شهد له القرآن الكريم به يوم جاءته الملائكة تبشره بالولد الذي طال انتظاره وهي المرسلة إلى قوم لوط ، فانصرف عن البشرى وراح يجادل الملائكة في قوم لوط ويحاول بطبيعته و بحلمه فيقول الله فيه : [فَلَما ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ] .[١]

وحتى تلك البشرى، لم تكن خالية من الحلم، هذا الخلق الذي جاء بأعلى منزلة من منازل الأخلاق فقد كانت البشرى لإبراهيم الحليم ، أن رزقه الله « بغلام حليم » وهو إسماعيل، جد نبينا محمد ﷺ فيقول الله تعالى [فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ][٢] فأي خلق أعلى من ذلك منزلة ، يشهد الله به للأنبياء مدحًا وتعظيمًا، فيكون خاتم الأنبياء والرسل حليم بقومه ، وجده نبي الله إسماعيل قد شهد له بالحلم ، وتعدى الحلم ذلك فشهد به لأبي الأنبياء إبراهيم .

---

١. [هود: ٦٩- ٧٥]

٢. [الصافات: ٩٩-١٠١]

ولعل هذه الشواهد تكفي من أراد الفلاح ، أن ينتهج طريق الأنبياء ، فهو طريق لا شك موصل للأمان ، وهو طريق يقوده في حياته للراحة والهدوء النفسي والقلبي ، لأنه تشبّه بأحسن البشر فتفاعل مع الكائنات بخلقهم الذي رباهم خالق الأكوان عليه .

٣. حلم المقتدر .

إن الحلم خلق النبلاء ، ذاك لأنه لا يأتي مع الضعف ، ولا يرزق لجاهل ، ولا يتخلق به مدّع أبدا . هو الخلق النبيل الذي يرزقه الشجاع الحكيم ، فإن الشجاع إذا ما اقتدر ونزعت منه الحكمة بطش أيما بطش ، فتقوده شجاعته وقوته إلى فوضى . والجبان إذا ما أوذي ما استطاع ردًا على الأذى فصمت صمت المقهور على ما حل به ، وذاك ليس بالحلم . إن الحلم قصة أخرى ، تضع الإنسان في قالب مختلف يصاغ به المرء على الشيم الفاضلة فتجعله شجاعًا، حكيمًا ، صاحبا للتأني وعاملا به ، فلا يفسد إذا قدر ، ولا يثور إذا ما غضب ، بل يفكر ويتمحص ، ويصمت عن أمر ويتحدث فيما هو خير منه تخلقًا بالحلم والتزامًا به .

فوائد الحلم .

١. طيب النفس ورفعتها .

إن النفس تتربى على ما تعودها عليه ، فإن النفس إذا تعلمت على الرفعة رفعت صاحبها وأعلت مقامه ، وإن هي دُست في الريب وتعلقت بالرذائل صارت الرذيلة تجر بصحابها إلى الرذيلة جرًا وترميهم في مستنقع الظلمات في كل مناسبة . ولكن الحليم يعلم أنه قد ربى نفسه على ما يستدعي الشجاعة والحكمة ، فصار عن نفسه راضيًا وبها مقتنعًا ، فهو الشجاع القادر على دفع الأذى عن نفسه ، ورد السوء عن حقه ، ولكنه لرفعة في نفسه وحكمة في عقله يصمت حين يستدعي الأمر صمتًا ، ويقول خيرًا حين يأتي للحديث وقته الأنسب . يوكل الأمر إلى صاحب الأمر كله ، فلا يباشر الحق بأن يأخذه بيديه وهو عليه قادر ، بل ينقله لمن هو أقدر في فعله و أحكم في تقديره . فأيما نفس تربت على هذا الخلق جاءت مرتاحة في كل حين ، مطمئنة لصنعها ولمبادئها العليا ، فهي لا تنزل في مستنقعات الجهل ، ولا تغضب على باطل .

تعاقب أيدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتّكلّم[1]

---

١. (من شعر إياس بن قتادة)

٢. مجتمع مبني على التراحم .

يكون من المجتمع من يجهل ، فالعلم من الله لا يعطيه إلا لمن شاء من عباده المجتهدين ، وهنا يحل الحلم من أهل العلم والقدرة، فيكون ميزان الثبات في المجتمع ، خالقًا للتوازن في جنباته ، فيحلم صاحب القوة بحكمته على صاحب الجهالة، ليؤجل فيه حكمه، ويعطيه من حلمه درسًا يعيشه ويطبقه، فيصلح حال الجاهل، ويعطى للمخطئ فرصة أخرى للتصويب والتعديل وهذا باب من أبواب زرع الرحمة بين الناس والتسهيل عليهم في شؤون حياتهم دون فوضى لمعرفة أن من قد أعطاهم الفرصة في حلمه قادر على نزع الفرصة منهم متى شاء .

ولعل الحق جل في علاه قد جعل الحلم من صفاته ليشير للناس لهذه القيمة الكبيرة ، التي جعلها الله وهو العدل المطلق صفة من صفاته ، وارتضاها لأهل الاقتدار من عباده لإنشاء ثوابت الرحمة بين المخلوقات وتكوين مبادئ الحلم في بني آدم لأن كلهم خطاء ، ولولا الحلم ما أعطي لخطاء الفرصة أن يكون من التوابين .

سألزم نفسي الصّفح عن كلّ مذنب وإن كثـــرت منه عليّ الجرائم

وما النّاس إلّا واحد من ثلاثــــة شريف ومشروف ومثلي مقاوم

فأمّا الّذي فوقي فأعرف قدره وأتبع فيه الحقّ والحقّ لازم

وأمّا الّذي دوني فإن قال صنت عن إجابته عرضي وإن لام لائم

وأمّا الّذي مثلي فإن زلّ أو هفا تفضّلــت إنّ الفضل بالحلم حاكم.[1]

٣. الآثار الصحية

راحة القلب تؤثر بشكل مباشر على راحة الجسد كافة ، فيكون الجسد مرتاحًا إذا ما عملت مضخات القلب كما يجب لها أن تعمل، فمتى تعب القلب ، أرهق الجسد ، وانعكس ذلك على خلق الإنسان وتفاصيل حياته . وهنا يكون للحلم قوام رفيع ، فالحليم هو ذاك الذي يسيطر على ردات فعله ، ويعلم أنه قادر على الرد لولا حكمته، ليكون هذا جانبا مهما من جوانب تهدئة النفس ، ودعوة واضحة للابتعاد عن ما يثير فيها مكامن الغضب ، ويدفعها إلى الانحسار إلى ما يستفز فيها ما يفسد الجسد من هرمونات التوتر والغضب ، لأن العالم بقدرته على الرد ، والموقن بعظيم شأنه في مسامحته هو

١. (من كتاب روضة العقلاء (ص:١٦٦، ٢٠٩) ، شعر محمود الورّاق)

إنسان لا يقترب إلى التوتر ولا يهتم له ، فهو واثق ، مستقر ، رزين. رزق قلبه رزانة فعله ، فثبت القلب بثبات صاحبه ، وتعافى القلب لطيب صاحبه ونبله .

ألم تر أنّ الحلم زين مسوّد لصاحبه والجهل للمرء شائن
فكن دافنا للشّر بالخير تسترح من الهمّ إنّ الخير للشّر دافن![1]

ويسطر لنا الحسن البصري في كلامه الدرر .. في تفسيرقوله تعالى: [وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا][2] : قوله : (حُلَمَاء: إن جُهِل عليهم لم يجهلوا)[3] وقد قال أيضا : « اطلبوا العلم وزيِّنوه بالوَقَار والحِلم »[4]

الحلم بين التطبيق والتنمية .

لعل الصبر على الأذى من الأمور التي يضبط الإنسان بها نفسه بشكل قويم ، ويعلم ذاته من خلالها على التحلي بالحلم وممارسته فيكون بهذا الصبر قد تقرب من الحلم تطبيقًا عمليًا يسهل عليه التحلي به في كل حين . فيكون ذاك الشخص الذي يصبر على الأذى

---

١. (من شعر محمد بن عبد الله البغدادي)
٢. [الفرقان: ٦٣]
٣. تفسير الطبري (٦٩\١٥)
٤. كتاب إحياء علوم الدين (٣ \١٧٨)

مستعد لطرد آفات التراث السلبي في المجتمع كمثل الانتقام وإسراف القتل ، وغير ذلك من عوائد التراث والأخلاق التي يتناقلها المجتمع دونما تفحص أو تصويب . إن الصبر والصفح على الأذى يتطلب من الإنسان أن يفكر بشكل إيجابي في كل عمل يود أن ينطلق بالتعامل به ، فتراه يبحث عن ما ينفع في كل أمر حياته ، فيبدأ به، وينطلق منه ، ويحاول أن يختم بكل ما هو إيجابي وذلك ليكون سبيلاً يلغي به الطاقة السلبية والتفكير العقيم الذي يقوده إلى الغضب وبالتالي ينزع منه الحلم . إذا عليك دومًا أن تنصح نفسك قائلاً :

« لتكن حليـمًا، اصبر على الأذى حين يصيبك » .

« لتتخلق بالحلم، فكر بإيجابية، ابحث عن الحل الأصوب » .

«إن الصفح عن المخطئ وسيلة لزيادة رصيد الحلم في داخلك».

«اذكر للمخطئ محاسنه، وتفكر بأفضاله وحسن عمله، فإن ذلك أدعى للحلم والتمسك به».

« تغافل، فلعل جهلك في أمر لمصلحة، خير من عملك لما يجر سوءًا».

ولابد للإنسان أن يعمل على مسببات الخلق ، ليستعين بها على التخلق به والتمسك به ، فالحلم كخلق وصفة يتطلب من صاحبه الكثير من التروي، والأناة في فهم الأمر والقرار بما يفعل حياله وإليك بعض الاقتراحات التي تدربك على ذلك :

١. تمسك بحفظ كتاب الله تعالى، وانشغل بمراجعته.

فأنت بهذا العمل تكسب رضا الله، وثواب الآخرة، وينفعك كتاب الله بأخلاقه وسمته في دنياك ويرزقك البركة.

٢. القراءة والمطالعة .

إن تخصيص وقت للانغماس في المطالعة المفيدة، والقراءة التفحصية تكسب صاحبها سمات الحلم والأناة، فهو يتعلم عن طريق القراءة كيف ينعزل للتفكر والتطوير، وكيف يحلل الأمور جميعها ويقوم بتفسيخها لما فيه منفعة .

٣. التزم بالصوم .

إن الصوم إلى جانب أنه عبادة، يعلم صاحبه ويضبط فعله، فإن الصائم لا يفسق بالفعل ولا يتلفظ بما لا يجب وإنه يبقى محفوفا بالخلق القويم الذي يرتضيه الله، وبذلك يتخلق بالحلم .

٤. قضاء الوقت في الرسم .

الفنان الذي يمتلك موهبة الرسم وصناعة اللوحة ، يحتاج إلى تركيز عقله ، والانشغال بهدفه ، والانغماس بما يرغب بصناعته، وبالتالي يتحلى بهذا الأمر بالهدوء ويتدرب على الصفاء والحلم .

٥. جالس عجوزًا طاعناً في السن، أو راقب طفلاً صغيراً.

لعل مجالسة الإنسان الطاعن في السن ، والصبر على ما يريد ويرغب ، والتخلق بأخلاقه التي اكتسبها من خبرات الدنيا أمر عظيم ، وهو يلتحق كما في النقيض من مراقبتك للطفل الصغير والصبر على طلباته و احتياجاته ، ولعله قد يتعدى عليك دونما وعي أو إدراك . هذه الأمور تدربك على الحلم وتبقيك في طور التدرب والتخلق بالحلم وأصوله .

٦. ذكر نفسك !

كل أمر تذكر به نفسك يبقى ويصبح طبيعة ، اكتب ورقة وعلقها على سطح المرآة ، أو على باب الغرفة ، أو في سيارتك .. اكتب بها ما يحفزك ، وفي تخلقك بالحلم .. اكتب عليها أحد الشعارات التي ذكرناها أعلاه .

ويبقى جانب التربية للصغير ، وتعليم النشْء القادم للصفات والأخلاق الحميدة من أهم جوانب إدامتها ، لأن الطفل في البيت أو المجتمع المدرسي بحاجة إلى أن يحقن بوعي بالأخلاق الحميدة فيفهم مفادها ويتعلم كيف يتدرب عليها . ولعل هذا يجعل من وظائف المربي أن يشرح ببساطة فوائد الحلم للطفل ،ويوضح له الأبعاد التي تناسب عمره ومحيطه ، ثم يستغل كل فرصة في تدريب هذا الطفل على خلق الحلم ، فيجعل له في أداء الوظائف المدرسية جوًا من الصفاء والهدوء ، ويساعده على التركيز في كل عمل يطلب منه القيام به ، ليمتلك هذا الطفل مسببات الحلم ولتساعده هذه المسببات على التخلق بالحلم في كل موقف . ويبقى التطبيق العملي للخلق من الأمور شديدة الأهمية ، فيسعى المربي إلى زراعة الحلم في تصرفات الطفل وذلك من خلال حثه على مسامحة أقربائه وأقرانه ، وبيان قيمة هذه المسامحة وفضائلها في مواقفهم اتجاه هذا الطفل ، ونظرة العامة لتصرفاته وتثمينها .

وبالعودة للنبع الصافي ، واستزادة من صفحات السيرة في الصحابي الجليل ، يروي أهل القصص والسير عن الخصومة التي كانت بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه -

وبين معاوية بن أبي سفيان تلك الخصومة النبيلة ، العالية في أخلاقها ، السامية في مبادئها ، حتى أن قيصر الروم ، لما بلغه الاختلاف والخصومة ، أراد أن يقتنص الفرصة ، وأن يغتنم الظرف كله لصالحه فأرسل كتابًا إلى معاوية بن أبي سفيان يقول فيه :

من هرقل قيصر الروم إلى معاوية

أما بعد ..

يا معاوية، لقد علمت ما كان بينك وبين صاحبك، فإن شئت أرسلت إليك بجيش قوي يأتيك بعلي مكبلًا بالأغلال بين يديك!

فقلب معاوية بن أبي سفيان رسالة هرقل ، وكتب على ظهرها ..

من معاوية بن أبي سفيان إلى هرقل الروم

أما بعد ..

فأنا وعلي أخوان، كل منا يرى بأن الحق له، ومهما يكن من الأمر فما أنت بأقرب إلي من علي ، فاكفف يا هرقل عنا خبثك وشرك وإلا أتيت إليك بجيش جرار ، علي قائده وأنا تحت إمرته حتى أملكه الأرض التي تحت قدميك ! [١]

---

١. ولعل ليس للقصة سند ثابت ، غير أن من يدرس السند في قصص الخلاف والخصومة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، لا يستغرب هذه القصة التي تروى في الخطب والسير لتعلمنا نبل الخصومة ورفعة الخلق منهما

العزيمة تشتمل في خالد .

بطاقة الصحابي :

اسمه : خالد بن الوليد بن المغيرة

ولادته : وُلد خالد بن الوليد رضي الله عنه سنة ٥٩٢م في مكة .

شهرته : لقّبه الرسول صلى الله عليه وسلم بسيف الله المسلول.

وفاته : تُوُفِّيَ خالد بن الوليد بحمص في ١٨ من رمضان ٢١هـ، الموافق ٢٠ من أغسطس ٦٤٢م

بدأت

السنة الثالثة عشرة للهجرة ، بقرار من الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه بمواصلة قتال الكافرين والتصدي لهم، وكان من جملة القرارات أن يجمع جيوش المسلمين لمقاتلة الروم، فقد بعث إلى خالد بن الوليد -رضوان الله عليه- وهو في اليمامة يومها أن سر بجيشك إلى العراق .

فلما بلغ الأمر إلى خالد بن الوليد ، وكان معروفًا بالإقدام والعزيمة ﷺ ، استشار الناس من حوله في الطريق الذي سيسلكه مع جيشه ليصل إلى العراق ، فكان من بين الناس رجل يقال له «رافع الطائي» والذي كان قد أشار على خالد بمشورة مجربة، ذلك أن رافع الطائي كان قد سار في هذه الصحراء المقفرة - التي لا نجاة منها- في رحلة كان بها في الجاهلية . يقول رافع - مشيراً بخبرته على خالد- " قد سَلَكْتُها في الجاهلية ، وهي خَمْسٌ للإبل الواردة ، ولا أظنك تَقْدِر عليها إلا أن تَحْمِل من الماء " . وبالفعل لقد هم خالد بالأمر، وعزم على إتمام أمر خليفة المسلمين -رضوان الله عليه-، فاشترى مائة شارف[1] من الإبل، فعطشها بمنع الماء عنها، ثم ما كاد أن سقاها حتى رويت ، ثم كعم أفواهها[2] وسار بالجيش في الصحراء المقفرة ، حتى إذا مضى يومان من السير خشي خالد على الماء أن يذهب من بطون الإبل ، وخاف على الناس والخيل من أن يقتلهم العطش ، فذبح الإبل جميعها ، وأخرج ما بقي في بطنها من الماء ، فسقى منها وأكل الناس لحوم الإبل . وفي الليلة الرابعة من أيام المسير، أوقف خالد الجيش ونادى رافع الطائي بالناس أن انظروا هل تَرون سِدرا[3] عظاما ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك !

---

١. (حَيَوانٌ شارِفٌ : مُسِنٌّ ، هَرِمٌ . من معجم المعاني الجامع)

٢. (كَعَمَ البعيرَ : شدَّ فاه في هِيَاجه لئلا يَعَضَّ أَو يأْكل. من معجم المعاني الجامع)

٣. السِّدْر : شجر النبق وهو نوعان: نوع ينبت قرب العيون والأنهار معجم المعاني الجامع

فنظر الناس فرأوا السِّدْر[1] فأخبروه فَكَبّر وكَبّر الناس. ثم ما لبث أن أصبح الناس وقد بلغوا الماء فأقبلوا على الماء يتصارعون عليه ، يريدون أن يستقوا من الماء وأن يسقوا ما معهم من الخيل . حينها قال خالد بن الوليد قولته المشهورة :

« للــــه در رافع[2] أنَّى اهْتَدَى فوز[3] من قراقر[4] إلى نَوى[5]

خَمْسًا إذا سَار به الجيش بَكى ما سَارَها قَبْلك إنْسِيّ يُرى

عند الصباح يَحْمَد القوم السرى[6] وتَنجلي عنهم عيابات الكَرى »

لقد سار خالد في جيشه من اليمامة إلى العراق كما طلب منه أمير المؤمنين أبو بكر الصديق -رضوان الله عليه- ، مرورًا بتلك الصحراء التي لا يقطعها الناس إلا في شهر من المسير ، لكنه بعد أن أخذ المشورة واستقر على الرأي ، عزم الأمر ، وسار بالناس في

---

١. السِّدْر : شجر النبق وهو نوعان: نوع ينبت قرب العيون والأنهار معجم المعاني الجامع
٢. رافع : يراد به رافع الطائي الذي أشار على خالد بالمشورة
٣. الفوز : وهي المفازة أي الصحراء المقفرة التي لا نجاة منها
٤. قرار و نوى : أسماء علم يقصد بها مناطق معينة
٥. السرى : هو مسير الليل
٦. القصة في مجمع الأمثال ينقلها الميداني من قول المفضل

ليال خمسة ، فقطعوا الشك باليقين ، و كان للجيش أن ورد مبتغاه في مسيرة عظيمة ، حفظها التاريخ وأنشد في فضلها مثلًا باقٍ أبدًا .

ولأن خير القصص ما اعتبر به ، يكون السؤال بأن كيف استطاع القائد الفذ خالد بن الوليد أن يستعمل حكمته في طلب المشورة ، وما الذي أعانه على توطين المشورة في خير موطن لها ؟ لابد أنها حتمًا العزيمة والإقدام ..

العزيمة لغة :

العزم: الصبر والجد، مصدر عَزَم على الأمر يَعْزِم عَزْمًا ومَعْزِمًا، وعُزْمانًا، وعَزِيمًا، وعَزِيمة. وعَزَمَه.

والعزيمة هي الحاجة التي قد عزمت على فعلها .[1]

أما عن تعريفها اصطلاحًا :

قال ابن عاشور في تعريف العزم: هو (إمضاء الرأي، وعدم التردد بعد تبين السداد)[2]

وقال الهروي: (العزم تحقيق القصد طوعًا أو كرهًا)[3]

---

١. (من كتاب لسان العرب لابن منظور (١٢\٣٩٩))
٢. (كتاب التحرير والتنوير (١٤\١٩٠))
٣. (كتاب منازل السائرين (١\٦٥))

وقال ابن الأثير: العزيمة (هي ما وكدت رأيك وعزمك عليه، ووفيت بعهد الله فيه)[1]

إن الطريق إلى كل نجاح لا يكتمل إلا بالعزيمة ، فالإرادة ما هي إلا الفكرة التي يزرعها الإنسان في عقله ويحاول أن يدرس أبعادها ويمني النفس بتحقيقها أو الكفاح من أجلها ، ولكن العزيمة أمر آخر فهي التي تبقيك على الطريق حتى الوصول ، والعزيمة هي شعلة الأمل ووهج الروح الذي يرشدك دومًا إلى السير والمضي قدمًا حتى بلوغ ما تصبو إليه . والطريق الأهم دومًا هو طريقنا إلى الله ، فيما يعرف بالحياة التي نعيش ، الطريق إلى الله لابد له من عزيمة حقة حتى يقطع ويصبر عليه ، فالإنسان يدرك أن الجنة قد حفت بالمكاره وأن الاستسلام والخضوع لما أمر الله يحتاج إلى أن يأمل نفسه بالجنة ويحث نفسه على مواصلة العمل من أجلها ، هذه المواصلة هي العزيمة والتي إذا ما خالطت الصبر شكلت طوق نجاة في محيط الظروف الهائج .

ولعل من أهم العوامل التي تعين المرء على الإقدام الحكيم هي التالي :

---

١. (كتاب النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٣١\٣))

١. معرفة الهدف .

٢. دراسة أبعاد الوسيلة .

٣. الإصرار على البلوغ .

٤. التوكل على الله .

معرفة الهدف

إن من المشاكل العظيمة التي تواجه الإنسان في مسيرة حياته أنه لا يرى للأهداف في حياته حقيقة أو رغبة ، فهو يمني النفس، يعدها ويحاول تشويقها ، ولكنه يبقى عاجزًا عن جعل أهدافه واضحة رؤيا العين . إن الأماني تنقسم إلى عدة درجات لعل أذلها هي التي يتعلق الناس بها - وهو التمني المخلوط بالعجز- ، وهذا يرى واضحًا حينما تتمنى الإنجاز متكئًا على أريكتك ، تغمض عينيك مفكرًا بالفرح الشديد المبهر وأنت تحقق هذا الهدف ، وربما يسير بك التمني سيرًا عظيمًا حتى تتوقع أن تساندك الظروف جميعها وتصطف أمامك صفًا واحدًا رغبة منها في إعانتك على تحقيق الهدف ، ثم ولأن الحلم " ببلاش " تبدأ بالإبحار في أفكارك وطموحاتك لتصور لنفسك أن هذا الهدف الذي تمني نفسك به

إنما هو الهدف الذي بحلوله سوف يعيش العالم هانئًا منعما . إن الأهداف لا تتحقق هكذا ، إنما معرفة الهدف يكون عن طريق زرعه في القلب أمنية والقيام به بالسواعد ، لا أن تغرسه في طينة المخيلة الخصبة التي تتراكم فيها الأحلام فتورث الجسد كسلًا وركودًا .

اعرف هدفك ، انظر له نظر العين المجردة ، يعني أن تسجله في كل مكان تذهب إليه ، أن تكتبه على كل ورقة ، وتجده في كل تصرف تهم به ، تشغل نفسك بالتفكير بكيفية تحقيقه عوضًا عن الإبحار في موجة العاطفة التي تصور لنفسك نشوة الحصول عليه ، اترك تلك النشوة للحظة التحقيق .. لتكن هي المفاجاة ! .

دراسة أبعاد الوسيلة .

« الغاية تبرر الوسيلة » تلك الجملة التي رغم تداولها تبقى نكرة في قاموس المبادئ والشرائع ، فالغاية العظمى لا تكون عظيمة إلا بصفاء القلوب وطيب المسير إليها ونظافة الواصلين خلقًا وعزمًا. إن الوسيلة الحقيقية التي تبلغ بك سير العظماء وتترك الأثر الذي يلمس وقعه في تحقيق الغايات لابد لها من أن تكون نقية وطاهرة، فالغايات الخالدة تاريخًيا إنما خلد عظمتها عظيم الصعوبة في

تحقيق الوسيلة الموصلة إليها . إن أخذ المشورة من أصحابها لمن أعظم طرق دراسة الوسيلة ، فالإنسان يمر في المشورة في مراحل متعددة ، يبدؤها بطرح المشورة على نفسه وذاته ، فيجتهد في تحصيل نتاج العصف الذهني على نفسه أولًا والخروج بما يحمل معنى وأصلاً ، ثم لا يهرع إلى التنفيذ دونما السماح لهذه الفكرة بالصقل الحميد عن طريق طبقات الاستشارة من أهل الاستحقاق ، ومعرفة مناسبتها للمكان والزمان ، والحرص على واقعيتها وحكمتها. ثم لابد لهذه الوسيلة أن تكون ملتصقة بالمبادئ والأحكام الشريفة، فلا تخرق دينًا، ولا تعادي إنسانية النفس البشرية ، ولا تتعارض مع العرف العام ولا الحقيقة العلمية المثبتة ، عندها تكون هذه الوسيلة مقنعة ومحل ثقة . إن للوقائع التاريخية جوانب هامة وشاشة كشف حساسة إذا ما طرح أمامها الوسيلة ، فإن طابقت هذه الوسيلة قانونًا تاريخيًا، وتجربة شبيهة أقر التاريخ نجاعتهافبها ونعمة . وتتعدد أساليب دراسة الوسيلة حسب الظروف والإمكانيات ، فكلما كان للوسيلة موافقة لأبعاد مختلفة ، كان السير بها إلى الغاية مطمئنًا .

الإصرار على البلوغ .

لن أبرح حتى أبلغ ، ذاك الشعار المحمود في قلبه وجوهره، يدفعك إلى طمأنينة القلب ، ويدفع الجسد إلى راحة شقاء العمل والإنجاز، نعم لن أبرح ! ثم ماذا؟ حتى أبلغ . هكذا تكون نفوس العظماء، في مختلف المجالات ، حتى ذاك الطفل الرضيع الذي بالكاد يخطو خطواته الأولى ، إذا ما أصرت نفسه على إكمال الخطوة تلو الخطوة ، وأتبع السقوط بالوقوف ، ليبلغ البلوغ ، وليصل إلى الضفة المقابلة ، هو في فعله البسيط عظيمة نفسه ، لأنه وبكل سهولة أدرك أهمية أنه لن يبرح ، حتى يبلغ .

إن حلقات التاريخ حبلى بأولئك الذين امتلكوا أفكارًا عظيمة، وشرعوا بتنفيذها ثم نكسوا على رؤوسهم لأنهم فقدوا القيمة الحقيقية المثلى للإصرار ، فلم يخلد التاريخ أفعالهم ، ولم يسجل الواقع أثر تصرفهم ، بل صاروا هامش الحكاية في رواية التاريخ لحياتنا أما أولئك الذين امتلكوا الرغبة الكاملة ، فصاروا ينسجون الإصرار نسجًا في قلوبهم ، يحدثون أنفسهم به ، همسًا وجهرًا، فعلًا وكتابة ، حلمًا وواقعا ، يريدون البلوغ ، ويرغبون بالوصول، كلهم خلد التاريخ أسماءهم العظيمة ، فكم من شخص ثّبت التاريخ ذكره

وأفعاله لأنه جثم على رقبة الحلم باغيا تحقيقه ومحاولا ذلك، كثير منهم وصل وأدرك الإنجاز، وحتى الذين ماتوا على الطريق إنما كان موتهم فتحًا وحياة لطريق الوصول إلى الحلم ... البلوغ !

صدق التوكل على الله تعالى .

تاج الإقدام ، ورمانة الميزان في الأمر كله ، أن يملك الإنسان التوكل على صاحب الأسباب وموجدها، هو الله تعالى .. أوجد هذا الحلم .. هو الله تعالى، سبب تلك المسببات .. هو الله تعالى ، صنع كل الظروف .. وهو الله تعالى، أوجدني وصنعني وألهمني، إذا فالأمر كله بين يديه وليس علي إلا أن أتبع نظام هذه الحياة التي سميت ب "سنن الحياة" تلك السنن أو المسببات التي جعلها الله مفاتح العبور من بوابة البلوغ إلى لذة الشعور بالإنجاز، فإن أنا أكملت الأحجية وجمعت الأركان بأن عرفت الهدف، ودرست الوسيلة، وأقسمت أني لن أبرح حتى أبلغ ، ثم توكلت على الذي جعل الأركان ورفعها، وسبب المسببات وجعلها ، وأوجد الكون وظروفه ، وخلقني وألهمني.. اكتملت قطع الفسيفساء واتضحت صورة الهدف حقيقة ، فإن كان خيراً لي بلغته وأدركته ، وإن حجب عني ومنعت عنه فذلك لخير كبير سيكون بديًلا عنه ولا يسلك إلا عن طريق هذا المنع، نعم ، إذا رزق الفهم في المنع ، عاد المنع عين العطاء .

لم يكن خالد بن الوليد من الذين يكتفون بالرأي والمشورة، فإذا ما أشير عليه ووجد أن الأمر جلل تراجع وتأخر عن السعي والإقدام، وهو أيضا لم يكن من الذين إذا ما أرادوا أمرًا انطلقوا به بلا حكمة ولا تخطيط، لكنه لما أراد النجاة بالجيش وبلوغ الطلب، جعل حكمة العقل في محلها أن استشار أهل المعرفة، فلما أشاروا عليه وعلم أن في هذه المشورة يبلغ الجيش مبتغاه في ليال خمس كلها شدة و خطورة، ما منعه كسل أو خوف، إنما عزم على الأمر عزيمة القادر الصابر، فجمع قواه وسار تقوده العزيمة ويبقيه الإصرار . وهناك طلع الصباح ، وحمد القوم السرى !

العزيمة على سبيل التطبيق

يبقى الإيمان بالهدف والثقة بالوسيلة المستخدمة لبلوغه وتحقيقه أساس من أساسات صاحب العزم ، فالمرء ما كتب أهدافه وسطر أبعادها ، ثم شرع بتنفيذها إلا تكاتف الدنيا لفتح السبل لعزيمته ، احترامًا لرغبته الصادقة ولعمله الدؤوب ، وهذا هو حال العازم على الأمر إن هو حقق شروط العزم وشرع منطلقًا منها ، ومن شروط العزم على الأمر فعل التالي :

١. توج قرارك بالاستخارة .

طمأنينة القلب هامة بالضرورة لتنفيذ كل عمل تؤمن به وتحاول تطبيقه ، لأنها تضفي على القلب والجوارح سكينة في كل الأحوال ، فالمرء لا يختار بعد اختيار الله له ، فالله عالم بما سيجري ، لطيف بعبده المتوكل عليه، ادرس الأمر وخطط له وقرر، ثم استخر ليطمئن قلبك باختيار الله لك .

٢. لا تخلط المراحل ، فيثبط عزمك .

إن العازم على الأمر يمر بمراحل مهمة ، كتدوين الأهداف مكتوبة غير معلقة ، ثم تحصينها بالتخطيط والتفكير والدراسة للوسائل المتاحة لتنفيذ الأمر ، هنا لابد من الشروع في التنفيذ والعودة لمراجعة المخرجات لاحقًا ، لأن أولئك الذين يخلطون بين وقت التنفيذ والتطبيق والمراجعة غالبًا ما يبقون في مكانهم دون حراك إلى الأمام ، فهم في كل خطوة يخطونها يتشككون ويراجعون، فيتأخر الركب وتحبط العزيمة .

٣. عدل معجمك واستخدم قاموس العزم .

لبعض الكلمات والجمل تأثير سلبي على فكر الإنسان وعمله كمثل قولهم "فات الآوان" أو ردنا على كل أمر نعزم عليه بقولنا "سوف" تلك الكلمات لطالما أخرت الركب عن المسير، وأثقلت العزيمة عن التنفيذ. اشطب هذه الكلمات ومثيلتها من معجمك الذي تؤمن به .

٤. اخلق منافسة شريفة لنفسك .

يكون التحدي للذات وسيلة من وسائل تدعيم العزم وتقويمه ، لأنك في كتابة أهدافك وتعيين أوقات لتنفيذها ، بل وحتى قد يصل الأمر إلى التصريح بالموعد لتقويم نفسك على التنفيذ وإجبارها على نبذ الكسل والتردد.

٥. لا تجالس كسولاً .

إحاطة الذات بما ترغب بالوصول إليه هو من مسببات الوصول الأساسية ، فالإنسان متى ما أحاط نفسه بمن يثبطون العزيمة ويؤخرون الإنجاز ، تأثر بركونهم فإما أن يركن أو أن يؤخر انطلاقته التي يريد، احرص على أن تقطع علاقتك بمن يؤثر على مسؤوليتك تجاه هذه الأمة ، وكن دومًا لأهل العزم مصاحبًا .

٦. جيّش المشاعر السلبية .

إن المكوث على الحزن يكسب النفس ألمًا لا مفر منه ، لكن أهل العزيمة يدربون أنفسهم على تجييش المشاعر السلبية لصف العزيمة، ويوثقون تلك المشاعر واللحظات التي تعصرهم بالألم بوثاق العزم على تغيير الحال وإنجاز المراد والمبتغى .

٧. بناء النفس التواقة .

تكثر في هذه الأيام المنصات التي تعرض للعالم قصص النجاح والتحدي التي غيرت من حياة الكثيرين من حولها ، قم بمراقبة هذه المنصات لتحفز في نفسك حب الإنجاز ولتكون ذاتك تواقة للعمل والإبداع .

٨. تفكر بما تهوى ، تسعد .

في أوقات الركون ، قم بالتحليق عاليًا في خيالك لترسم لنفسك سعادة لما ستكون عليه إن أنت أكملت العمل ، ونهضت لإنجاز ما ترغب وما تشتهي ، هذه السعادة سوف تدفع عزمك إلى التحقيق .

وعودة في آخر المطاف إلى عظيم مواقف الصحابي الجليل خالد بن الوليد ، حين حضرتْه الوفاة قال: «عرفتُ أن عمر كان

يريد اللهَ بكل ما فعل، كنت وجدت في نفسي حين بعث إليَّ من يقاسمني مالي، حتى أخذ فردَ نعلٍ، وأخذت فرد نعل، فرأيته فعل ذلك بغيري من أهل السابقة، ومَن شهد بدرًا، وكان يغلظ عليَّ، وكانت غلظته على غيري نحوًا من غلظته علي، وكنت أدلي عليه بقرابة، فرأيته لا يبالي قريبًا، ولا لوم لائم في غير الله، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه، وكان يكثر علي عنده، وما كان ذلك مني إلا على النظر، كنت في حرب ومكايدة، فكنت شاهدًا، وكان غائبًا، وكنت أعطي على ذلك، فخالفه ذلك من أمري، فقد جعلت تركتي ووصيتي وإنفاذ أمري إلى عمر بن الخطاب » [1]

ويكون هذا الجانب المهم من حياة خالد بن الوليد ، والذي سطره في آخر لحظات حياته ليكون ردًا جاهزًا على مخترعي الفتنة المزعومة بينه وبين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه، والذين لم يتنزهوا عن الخوض السيء في نواياهم وسيرتهم ، فراحوا ينسبون لهم نوايا السوء التي قبعت في قلوب مخترعي هذه الفتنة وجعلوا أن أساس العداء كان من الصبا قبل البعثة . وليكون أكمل الرد عليهم هو ما انتهى إليه كلمات خالد بن الوليد في مقاله

١. ابن العديم، "بغية الطلب"، ج٣١٣٣/٧، الذهبي، "سير أعلام النبلاء"، ج٣٧٢/١.

عن عمر بن الخطاب لما حضرت الوفاة خالد ، وكمال القصة في قول الفاروق حين قال « لو أدركتُ خالدًا ثم وليته، ثم قدمت على ربي فقال لي: من استخلفتَ على أمة محمد؟ لقلتُ: سمعت عبدك وخليلَك يقول لخالد » سيف من سيوف الله، سله الله على المشركين،

إن تصرف العزل الذي كان من عمر بن الخطاب -رضوان الله عليه- ، كان موقوفًا عند التصريح الذي صرح الفاروق به ، وهو الذي لا يعرف في الحق لومة لائم بشهادة خالد بن الوليد التي شهدها فيه ، وشهادة المواقف التي تثبت صحة الفعل من فاعله، وفي هذا قال قولته "إني لم أعزل خالدًا عن سخط ولا خيانة، ولكن الناس فُتنوا به، فخفتُ أن يوكلوا إليه، ويُبتلوا به، فأحببتُ أن يعلموا أن الله هو الصانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة"، كما قال عمر: "أردت أن يعلم الناس أن الله إنما ينصر دينه"[١] .

ومما تبين ، يتوضح للقارئ في هذه الأسطر وللناظر بتمعن في سيرة الصحب أهل الفضل أن الاختلاف في الرأي ما كان سببا للمنازعة والمناكفة ، بل كان الفهم الواقع بينهم ، والثقة المسيطرة على تكوين الأمر في ذاك الزمان ، كلها قادم من بوتقة العمل

١. الطبري، تاريخه، ٤٠٦/٤. و أيضا خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٢

الدؤوب لرفعة هذا الدين ، فخالد لما عزل ما اعتزل بل قبل ونافح ، وعمر لما عزل ما أفحش في فعله – وحاشا له – بل مدح ووضح وأزال الشبهات ، هكذا يكون الخلاف بين القامات العليا وأهل السمات الرفيعة . ولعل تصرف سيف الله المسلول خالد في هذه الحادثة هو مدرسة ومذهب في طريقة الفهم لاختلاف الآراء والتعامل معها، فرغم شجاعته ومع شديد حرصه وعظيم إنجازه ، أدرك صدق القائل وثقته في سببه ، فكان هو أول المجيبين وخيرة العاملين ، فالدين أولى من أن يفتتن الناس بالرموز ، والعمل لأجل هذه الأمة لا يكون بالأسماء والمناصب ، بل هي مسؤوليات يتقاسمونها لرفعة هذا الدين وتقدمه . هم السلف الصالح .. فأين نحن منهم ؟!

الخاتمة

نتعلّمُ من قول الإمام الجليل سيدنا سفيان الثوريّ:

(حسن الأدب يطفئ غضب الربّ).[1]

وبهذا المعنى العظيم تنطلق كلمات الختام لتضيفَ على الأمانة غطاءً من القداسة، فالأخلاق أمانةٌ يؤدّيها الإنسان لنفسه أولًا؛ فهو بخلقِه يحفظ نفسَه من الوقوع في مدارك السوء ويجنّبها غضبَ ربّ الأرباب، ثمّ تكون هذه الأخلاق أمانة الإنسان مع مجتمعه فمتى هو أصلح خلقَه مع الآخر صار قدوةً تتّبَع فيتأثر الناس بها ويصلح حال المجتمع، ومن المجتمع إلى الأمّة جمعاء، ثمّ إلى الإنسانيّة تنتقل العدوى كلّما زاد الانتشار؛ فلننشرْ الخلقَ القويمَ على رؤوس الخلائق بتصرّفاتِ ارتضاها الله لنا، وقبلها لنا عملًا وسمتًا وبهذا تكون أخلاقنا وتعاملاتنا بأبعاد عديدة - كلّها شديد الأهمية - ولعلّ أقدس تلك الأبعاد هو استخدام أخلاقنا في رفعة الإنسانيّة وجعلها بابًا لنشرِ دين الله الذي نعتقدُ بِه ونؤمن، فقد ورد عن الجليل عكرمةِ قولَه: (لكلِّ شيءٍ أساسٌ،وأساسُ الإسلامِ: الخلقُ الحسنُ).[2]

---

١. حلية الأولياء(٧/ ٩٧)

٢. حليةالأولياء(٣/٣٤٠)

إنّ هذا الكتاب يعدّ لَبِنةً صغيرةً في بناءٍ لا بُدّ أن تعيدَ الأمّةُ ترميمَه وتُشيّده بالأسلوبِ الحديث والجاذب للقُرّاء من شتّى الأعمار، ومن كلّ الشرائحِ، فالخُلُقُ والتّربيةُ هي أوّل الطريق لكلِّ حضارةٍ، ما دامت حضارة ساقطة الأخلاق، ولا حَسُن حالُ أمّةٍ أضاعت التّربيّة، فإنّ هذا الكتاب يختار أمثلةً من الأخلاق والصّفات التي يتوجّب على الإنسان أن يذكّر نفسه بها في أوّل الحال، ثمّ يهرع في تطبيق أدوات تحصيلها والتمكّن منها، حتى تصبح هذه الأخلاقُ من السَّمْت العام الذي يتصرف به دون تقصير ولا نكران. ثم يأتي واجبُنا وواجبُ كلّ فرد من أفراد هذه الأمّة أن يكمّل العمل بما هو جدير، فيضيف لهذه السّلسلة المختارة ما يُضيف لتكتمل عند الراغب في الصّورة الشّاملة، ويكون للأخلاق في مكتبتِنا العربيّة والإسلامية دليلٌ شيّق ومتجدّد في طرحِه وأسلوبِه.

إن الأدوات التنموية في هذا الكتاب والتي جعلت في خُلُق دون غيره لا تقتصر على الخُلُق المُسمّى في عنوان الفصل، وإنّما هي تدريبات لم نكتبْها مكرّرة فيضيع تركيز القارئ ويكسل عقله، بل جعلناها كثيرة موزّعة فهي تصلح للتّطبيق على غيره من الأخلاق

ويمكن تطويرها وتحسينها وإعادة صياغتها بمراعاة مجمل الحال والظرف.

إنّ الأمم والحضارات كانت قديمًا تؤمن بأنّ الخُبز يأتي في المرتبة الأولى ولا يليه شيءٌ أهمُّ من الخُلُق، فإن كان الخبز يُبقي الجسدَ على قيد الحياة قادرًا على الفعل، فهو لا يفعل ذلك ليمنحَ الجسدَ قوّةً على الإفساد، والبَطْش، والضّلال، ولكنّ الخبز لو كان له أن يختار؛ فالأوضح أنّه سيختار مَنْحَ الرّوحِ وعاءً للعمل والتنفيذ، تلك الرّوح التي خُبزها وبقاء حياتِها بالخُلُقِ القَويم . وتكثر المفاهيم وتتعدّد سُبُل طرحِها وفلسفتها، فكلٌّ يفلسِف الأخلاقَ بكلماتِه وحسبَ مفاهيم عصره، ولكنّ تلك المفاهيم تجتمع في أهمية الأخلاق ورفعة أمرها في حياةِ الإنسانيّة، وما كان هذا الاجتماعُ من العقلاءِ عليها إلا دلالةً على أهميّةِ الاهتمام بها ورعايتِها في إنشاء حضارة تقودُ الإنسانيّة لكلّ ما هو خيرٌ وأبقى.

لقد علّمنا الكبيرُ سيّدنا مالك في الموطأ قولَه وقت تأليفه: (أن ما كان لله بقي) ولسنا نجد كلامًا نضعه تاجًا على هذا المؤلَّف البسيط أجمل من قول الإمام المبجّل، فنسأل الله تعالى أن يبعِدَ عن

هذا العمل ما يَريْبه من عمل الشّيطانِ، ويجبرَ النقصَ في ما كتبنا به وتحرّينا في تأليفِه من عملنا وللإنسان أن يقصّر، فاللّهمّ اجعل هذا العملَ لك، كاملًا شاملًا لا تتفلّت منه كلمة، ولا تذهب منه بركة، وتقبّل منّا إنّك أنتَ السميع العليم.

د.أحمد علاء الشمّري

كتبت الخاتمة في يوم عرفة

٠٩ | ذوالحجة ١٢| ١٤٣٨هـ

١٣ |أغسطس ٠٨| ٢٠١٧م

الفهرس